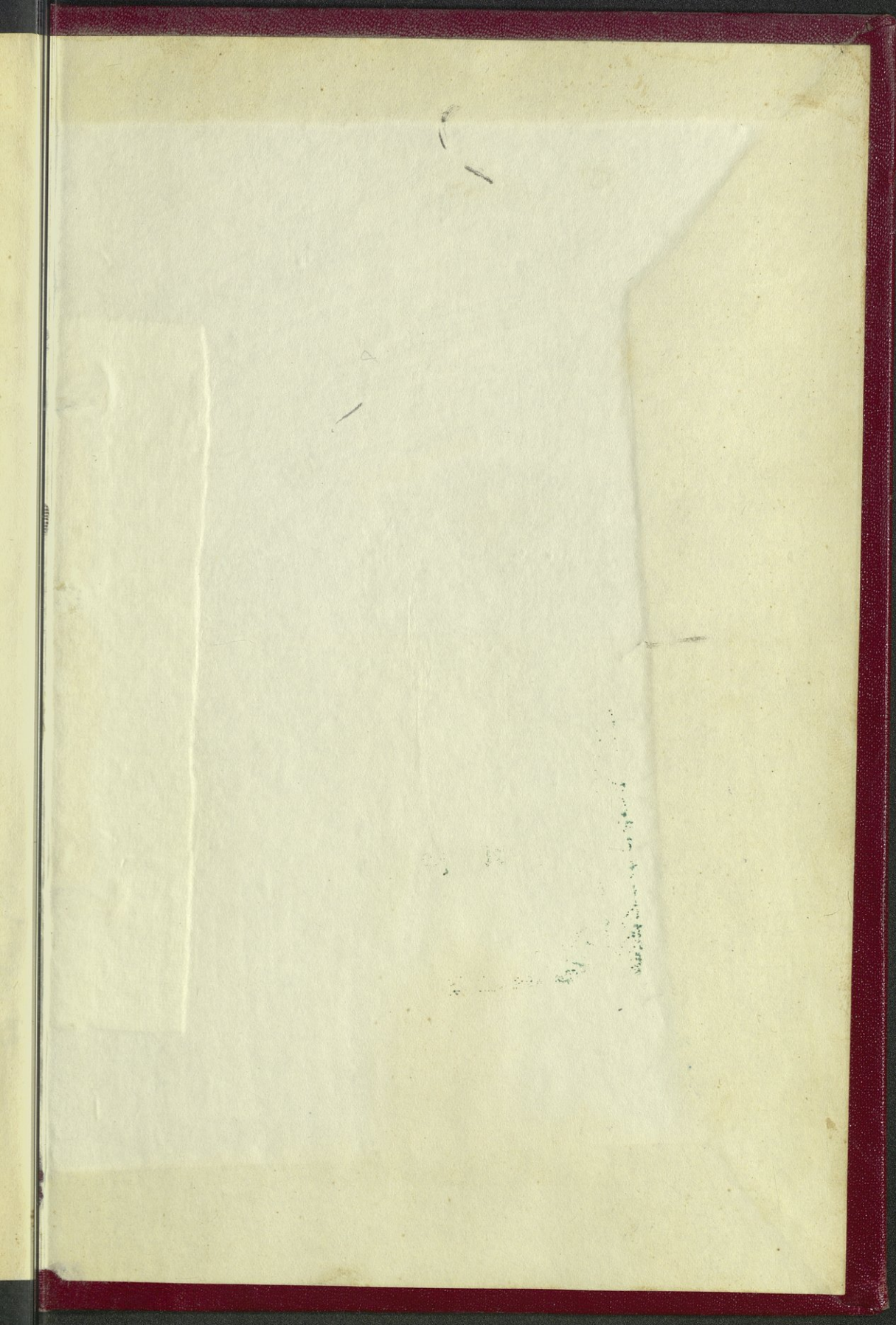


البرغني

لمعات من التصوف



297.48:M67LA

الميرغني - حامد محمود علي اسماعيل

لمحات عن التصوف •

297.48
M67LA

- ~~Dec~~ 69

~~JA 14 54~~

~~JA 28 54~~

~~FE 14 54~~

~~MY 6 54~~

~~NO 15~~

~~DEC 12 '56~~

~~DEC 12 '56~~

~~16 OCT 1986~~

13 Feb 67

cat. 11 Nov. 53

هذا هو النور

الحمد لله المصنوع

تأليف

حاج محمد علي إسماعيل

الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة شباب محمد صلى الله عليه وسلم
٢٢ شارع البركة الناصرية - السيدة زينب مصر

cat. 11 Nov. 53

٢٤٢٨
١١٠٧٨
افنا مع انه

مفتي

مفتي

لجنة

١٣٧١ ق م

مفتي

مفتي

مفتي

الآداب

إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء
والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى ، قيل يا رسول الله خبرنا
من هم وما أعمالهم ؟ فلعننا نحبهم ، قال هم قوم تحابوا في الله على
غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها ، فوالله إن وجوههم لنور
ولهم على منابر من نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون
إذا حزن الناس .. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
الذين آمنوا وكانوا يتقون .

إلى هؤلاء الصفوة الكرام أهدى كتابي

المؤلف

حامد محمود علي اسماعيل الميرغني

دائرة المعارف



صورة المؤلف

تأليف د. محمد عبد الحليم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله ، وأستعينه ، وأستهديه ، وأستلهمه الرشيد والتوفيق ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

وأصلى وأسلم على سيد أنبيائه وخير أصفياؤه سيدنا ومولانا محمد أفضل من عرف ربه فكان في سمر روحانيته وعلو همته أعظم مثلاً وأعلى مقاماً .

وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين زكوا أنفسهم فافلحوا وتواصوا بالصبر والحق فكان لهم طيب الاحدوث في الدنيا وجلال المثوبة في الآخرة .

اللهم أكرمنا بكرامتهم ووفقنا إلى أعمالهم واهدنا صراطهم وألحقنا بهم فإنك خير مسئول وأكرم مأمول .

وبعد : يحلو لكثير من الباحثين والدارسين أن يهاجم التصوف والصوفية ، ويسرف في التهم والتجريح وينكر عليهم كل فضل ، ويجردهم من كل نبل .

فاذا ما ذكر التصوف ذكر إزائه البطالة والكسل والإخلاص إلى الراحة والتعرض للسؤال .

وإذا ما تناول الصوفية سال قلبه بعبارة التهم بأساليبهم وصورهم في صورة الدراويش ، الذين يلبسون المرقعات وتحيط بهم جيوش القاذورات إلى غير ذلك مما يشاء له خياله الآفن وفكره السقيم .

والحق أن ذلك تجنٍّ صارخ على التصوف ومبادئه وظلم بين للصوفية .

فلقد نظرنا بعين الإنصاف إلى أصل الفكرة وجوهر المبدأ وتأملنا طويلاً فيما يهدف إليه الصوفية من تربية الروح وتهذيب القلب وتقويم النفس حتى يشب الفرد مثلاً صالحاً وأنموذجاً عالياً في طهر الأخلاق وسلامة التربية ، وإن مجتمعاً ينشأ أفراداً على تلك المعاني هو أقرب إلى عالم الملائكة منه إلى عالم الحيوان .

فهل يليق بالمنصف عندئذ أن يعيب على الصوفية فكرتهم أو ينال من أساليبهم ؟
اللهم إلا إذا أراد مجتمعاً يعيش بالآلة لا بالروح ، في ظلام المادة وطغيانها ، لا في
نور الروحانية وصفاتها ، وهل التصوف إلا روح وريحان ونور وإيمان يفيض على
من تدفقه النعيم والرضا ، ويشرق على من تأمله بالهدى والسكينة ؟ ؟

وهل الصوفية إلا نماذج عليا من البشر ! أو صور حية كاملة من الملائكة رأوا
في عبادة الله متعاً روحية تتضام حيالها متع الحياة ولذا نذها ؟ ؟ فأحالوا الوجود إلى
محارِب للمعبادة ومنابر تهتف بالرحمة والمحبة حتى أشرقت الأرض بنورهم وتعتطرت
الحياة بصفائهم وتأثر الوجود بروحانيتهم .

دع عنك هؤلاء المتصوفين الجملاء الذين ينتسبون إلى التصوف زوراً وبهتاناً ،
بل كانوا حرباً عواناً على التصوف ، حيث مهدوا بسوء صفيهم للحملات الهوجاء
التي يشنها الخصوم على الأبرياء ، ولكن انظر إلى الصفوة المختارة من رجال أهل
المعرفة الذين سجل لهم التاريخ مواقفهم الحسنة في حياتهم التعبدية ، والذين فهموا
غاية الحياة وسرها فنادوا - مخلصين - بأن كل شيء لله ومن الله ، وأن الحياة طابعها
الرحمة ودستورها المحبة وهدفها العبادة .

وما أخرجنا في هذه الأيام التي تخبط فيها الحياة في دياجير المادية الطاغية في بحر
لجى من الشهوات ، يغشاه موج من المجنون والإباحية ، من فوقه موج من الأحقاد
والآناية ، من فوقه سحب متراكم من الرذائل والأرجاس ، ظلمات بعضها فوق
بعض ، أنكرت الإيمان فلم يصدر عنها إلا شر وعدوان .

ظلمات كثيفة من الفقر الروحي الذي ذهب بعواطف الخير والمحبة ، ما أخرجنا
- والحالة هذه - إلى حياة أخرى هائلة ، نجد فيها برد الراحة والطمانينة ، وتنقياً
فيها ظلال الخير والبركة ، ونعم فيها بنفحات المحبة والصفاء .

وإني لأؤمن إيماناً عميقاً لا يرتقي إليه شك أن للتصوف والصوفية ميداناً فسيحاً

وجهاداً مشكوراً في رفع القيم الروحية والمعنوية في النفوس ، ورد تيار المادية وإعادة الهدوء والصفاء إلى الحياة ، والإشراق والسلام إلى الوجود .

وعلى هذا الأساس لمحت في كتابي هذا عن بعض الأحوال والمقامات التي آنستها من التصوف ورجاله والتي قد يكون لها في حياتنا العامة والخاصة أثر عميق .

وإني وإن كنت أعتقد أن هذا المجهود فوق طاقتي ، لكنني أشعر بما كان لهم من أثر بالغ في حياتي .

لذلك أردت أن أجلو للقسارىء الكريم فكرتهم مستعِيناً في شرح ذلك ببعض فعالهم وأقوالهم ، اعترافاً مني بفضلهم ، وسموا بدعوتهم أن تتناول عليها الأفكار السقيمة بالقدح والتجريح .

وأستلهم الله التوفيق والسداد وأستعصمه العثرة والزوال فمنه المبتدى واليه المنتهى وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

المؤلف

حامد محمود علي اسماعيل الميرغني

القاهرة في ١٤ شعبان المبارك

سنة ١٣٦٩ هجرية

التصوف

التصوف رسالة روحية وفكرة دينية وطريقة تهذيبية ، عمادها تصفية القلب من أضرار المادة وشوائب الحياة وقوامها صلة الانسان بالخالق العظيم .
ولقد ذهب الأولون في تحديده كل مذهب ، فمن قائل بأنه هو الدخول في كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى ، ومن قائل بأنه أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام . إلى غير ذلك من رسوم توضح لئسا طبيعة التصوف وأهدافه .

اشتقاق كلمة التصوف :-

وقد اتخذ السادة الصوفية - كلمة التصوف - علما على مذهبهم كرمز للصفاء الذي عطروا الدنيا به ، ورمز لشعارهم الذي يهتفون به وهو الزهد في الدنيا والإعراض عن زينتها والاتجاه الكلى إلى ما عند الله وهو خير وأبقى . وتأسيا بأهل الصفة رضى الله عنهم وهم الرعيل الأول من رجال التصوف الذين تجردوا من مظاهر الحياة وقاضت قلوبهم بهدى الله وعكفوا على الطاعة والعبادة في صفة بناها لهم رسول الله ﷺ في مؤخرة مسجده بالمدينة .

نشأة علم التصوف :-

لم يكن التصوف إلا علما من العلوم الشرعية عنى به سلف هذه الأمة ، وألفوا فيه كتباً ووضعوا له رسوما وقوانين ، ولقد زعم المغرضون أن التصوف مستمد من فلسفات الهند واليونان بحجة أن كلمة - التصوف - مأخوذة من (صوفيا) وهى كلمة يونانية معناها الحكمة ، وهو زعم باطل لا يسنده المنطق ولا تدعمه الحجة .
بيد أن علم التصوف وكتبه قد لحقها كثير من الأباطيل شأن غيره من العلوم ، وهل هناك أسنى من كتب التفسير والحديث والتاريخ ؟ ومع ذلك فلم تسلم من الزيف

والدخيل والعليل والسقيم . ولا يدعونا ذلك إلى الحكم بتجريد أى علم من هذه العلوم من صبغته الدينية وطبيعته الإسلامية .

وما أجدد بالباحثين والمفكرين أن يحافظوا على ذلك التراث الإسلامى العظيم الذى تركه لهم أسلافهم من قبل وديعة فى أيديهم وأمانة فى أعناقهم فيقدروه حتى قدره ويخلصوه من كل شائبة تعكر صفوه أو تهبط به إلى المسكان الذى لا يابق به . فهل فكر المنصفون من أولى الراى والفكر والقلم أن يشحذوا همهم فينفوا عن التفسير لإسرائيلياته ، وعن التاريخ ترهاته ، وعن التصوف زيفه ودخيله ؟ حتى يتسنى لناشد الحقيقة أن يمجدها ويميزها عما سواها ؟ ؟

ولقد أحسن ابن خلدون فى مقدمته حيث عرض لتاريخ التصوف بروح الباحث الحر فقال : (. . .) وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الأمة وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشلت الأقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية) .

من المؤسس الأول ؟ :-

أما أول من أسس ذلك المذهب الصوفى فهو وحى السماء نزل به فى جملة ما نزل به على رسول الله ﷺ من معالم الحنيفية السمحة ، ومقامات الدين العالية وهى : الإسلام والإيمان والإحسان ، فالإسلام طاعة وعبادة ، والإيمان نور ومعرفة ، والإحسان مقام شهيد بالقلب بأنه فى نطاق العظمة الإلهية — ترى الله وبراك الله —

هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم *
يقرأ الصوفي هذه الآيات وغيرها فيذرف الدمع أسفا على ما قصر في حياته .

أخذ العهد :-

بعد التوبة الصادقة يلتحق الطالب بمرشد أو شيخ يتعهد بالتوجيه ويرشده إلى الطريق الحق ويضئ له ما أظلم من جوانب نفسه حتى يعبد الله على بصيرة وهدى .
أما إذا انفرد بنفسه فلا يأمن أن يستحوذ عليه الشيطان فينسيه ذكر الله وما مثله حينذاك إلا كمثل حديقة لم يعن بها فلم تثمر ثمراً صالحاً .

وأول ما يتلقاه الطالب عن شيخه هو العهد والميثاق ، عهد على الإيمان وميثاق على الطاعة ، وتعارن على البر والتقوى ، وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع أصحابه كما ورد ذلك في القرآن الكريم ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، وجاء في صحيح البخارى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك » .
والسادة الصوفية هم أحرص الناس على حياة تعبدية خالصة تقوم أسسها على السمع والطاعة والخضوع والإذعان لنصيحة ناصح أو توجيه مرشد ، فنشأت بينهم تلك المدارس الروحية التى قامت على أعظم أساليب التربية والتقويم وأقوى صلوات الروح بين الشيخ والمريد .

فكانت تلك المعاهدات والبيعات لها من الأثر فى التزكية والإصلاح أقوى شأن وأوفر نصيب .

طريق الوصول الى الله

الفرار إلى الله باب النجاة ومركب الأمان ، لذلك اتجه الصوفية بقلوبهم وجوارحهم نحو ربهم لأن هو انتب الحقيقة تهتف من وراء حجب الغيب ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ، ألخصبت أنفسنا خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ، ففروا إلى الله إلى أن يسلحكم منه نذير مبين ، ، وقد رسموا لأنفسهم طريقاً يسلكونه بمقامات متعددة حتى يصلوا إلى المعرفة ، وإلى الحقيقة ، وأول هذه المقامات :

١ - التوبة : - وهي الشعور بالخطيئة والعزم الأكيد على الإفلاع عنها ، وعدم التفكير فيها ، إذ الشغل الشاغل هو الله عز وجل ، والصوفي لا ينظر إلى صغر الذنب بل ينظر إلى عظمة من عصى اقتداء بأصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم . فلقد كان فيهم من يقول : ، إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدّها فزون النبي ﷺ من الموبقات ، ولا يقف الصوفي عند التوبة من المعصية ، لأنها في رأيه توبة العوام ، ، بل يتوب من كل شيء سوى الله تعالى ، وإلى هذا أشار ذو النون المصري بقوله : ، شتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات ! ويستتبع التوبة الاستكثار من الاستغفار أثناء الليل وأطراف النهار ، الذي يشعر الصوفي بالعبودية الحقة والتقصير في حق مولاه ، فهو اعتراف منه بالعبودية وإقرار بالربوبية ، ثم هو يقرأ في كتاب الله قوله تعالى : ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ، وقوله تعالى : ، إن المتقين في جنات وعيون ، ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، ، وبالأصباح

نشأة الطرق الصوفية :-

ومن هنا نشأت الطرق الصوفية التي يخضع فيها المريدون لنظم خاصة بكل طريقة وكان قوام هذه الطرق منذ نشأتها طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ ينير لهم سبيل الهداية ويصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم وجمال العمل .

ومن هذه الطرق (١) النقشبندية نسبة إلى سيدي محمد بهاء النقشبند (٢) القادرية نسبة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني (٣) الشاذلية نسبة إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي (٤) الجنيدية نسبة إلى سيدي أبي القاسم الجنيد (٥) الميرغنية نسبة إلى سيدي محمد عثمان الميرغني رضي الله عنهم أجمعين .

وقد تشعبت من تلك الطرق فروع كثيرة مازالت تظهر بين حين وآخر وهي تهدف إلى الوصول إلى الله تعالى .

٢- الورع :-

وهو مقام صفاء القلب وإشراق البصيرة ، بالانصراف عن اللذات الشهوانية إلى العواطف الدينية .

ومن الصوفية من يتورع عن الشهوات حتى لا يوشك أن يتردى في حمأة الشهوات ومنهم من يتورع عما يهيج في قلبه من الخواطر ، وما يحبك في صدره من الوسواس ، وهو ورع أرباب القلوب ، وهناك ورع العارفين والواجدين وهم الذين يرون أن كل ما يشغلك عن الله فهو مشغوم عليك .

ورضوان الله على الصوفية الذين أعادوا لنا بهذا التسامى العجيب في ورعهم صورة من حياة الصديق أبي بكر رضي الله عنه ، فقد روى أنه شرب لبناً فيه شبهة أتاه به خادمه ولم يعلم بذلك إلا بعد أن تجرع الإناء حتى الثالثة ، فما وسعه حينئذ إلا أن وضع إصبعيه في حلقه وأخذ يتقأ باللبن ، ولم يكتف بذلك بل اعتذر إلى ربه بما خالط الأمعاء والشرابين مما لم يسكن في وسعه إخراجه .

٣- الخوف :-

ولا غرو ، فبعمت ذلك الورع الذى راضوا أنفسهم عليه هو خوفهم من الله تعالى ، ذلك الخوف الذى يتمثل فى تشبيج من يقدر خطورة العواقب فيقف عند الواجب ولا يمرض نفسه لزيغ ولا لثم ، بل ولا يقف فى مواطن توشك أن توقعه فى الشر والفساد .

ثم يترقى الصوفي فى الخوف ، فيتجلى بأشرف ما يتجلى به المقربون ، وعندئذ تنتقل مظاهر الخوف من عالم الجسم إلى عالم الروح ، فتكون للعارف أشجان لا يدركها إلا أهل الصفاء .

وفى هذا المقام يصف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه السيدة رابعة العدوية بأنها كانت كثيرة البكاء والحزن وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا وكان موضع سجودها كهيئة المستنقع من دموعها ، وكأن النار ما خلقت إلا لأجلها . وسر ذلك الخوف إنما هو الاعتقاد بأن كل بلاء دون النار يسير ، ويرى الصوفية أن المحب لا يسقى كأس المحبة إلا بعد أن ينضج الخوف قلبه ، ومن لم يكن له مثل تقواه ؟؟ لم يدرك ما الذى أبكاه ، ومن لم يشاهد جمان يوسف لم يدرك ما الذى ألم يعقوب .

الخلوة :-

ذكرنا من قبل أن ورع العارفين ، هو الانصراف عن كل ما يشغل عن الله عز وجل ، لذلك كان طبيعيا أن يهبطوا لأنفسهم الجو الملائم بعيدين عن صخب الحياة وأوضارها حرصا منهم على حياة طاهرة عابدة ، وقد تمت لهم تلك الرياضة الروحية فيما يسمونه (بالخلوة) عن شواغل الخلق وشئون الدنيا .

وفى هذه الخلوة يرسل الصوفى تأملاته الطويلة وسبحاته المفكرة ، فى الكون ، وما بدا عليه من آيات الله ، ودلائل عظمته ، ومظاهر سلطانه ، ويظل على تلك الحال

مستغرقاً في محبة الله وجلاله لا يدور بخلده أى طائف يشغله عن ربه ، حتى أنه لينسى نفسه في حضرة القدس الأعلى .

وإن هذه الخلوة التى يتخذها الصوفية لتركبة نفوسهم ، لدى الجماعة الأولى في نور التصوف والبذرة الأم لتلك الحياة الروحية القائمة على إلهام القلب وتأملات الروح وإذا أمعنا النظر في تلك الحياة الروحية وحللناها إلى عناصرها التى تألفت منها ومعانيها التى انطوت عليها لوجدنا صورتها الأولى في حياة الرسول ﷺ حينما كان يخلو إلى نفسه يتصفحها ، وإلى السكون يتأمله ، وإلى مبدع السكون يستطلعها ، فى ذلك الغار الهادئ الوديع البعيد عن ضجيج الحياة وجلبتها ، وظل على تلك الحال حتى صفت نفسه ودق حسه ، وصقلت مرآة قلبه ، ونهياً له أن يرى الرؤيا الصادقة التى أشرقت بعدها الحقيقة الكبرى فى أعماقه وهبط عقيها الوحى .

٤- الزهد :-

وهو أعظم مقام عرف به الصوفية حيث لم يقيموا للدنيا وزناً ، ولم يرفعوا بها رأساً ، والمراد بالزهد عندهم انصراف الهممة إلى الله وتخلي القلب عن الدنيا ، وليس معناه أن يتخلي الصوفى عن الدنيا بالكلية ، ويقطع صلته بها ، ويقعد صفراً منها ، بل الزهد بالمعنى الصحيح أن يخرج الدنيا من قلبه ، فلا يلتفت إليها ، ولا يدعها تسكن قلبه وإن كانت فى يده ، ولذلك قال بعض العارفين : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك .

وكأنه يشير بذلك إلى حال الرسول ﷺ حين جاءت له الدنيا وألقيت إليه مقاليد الغنى والثراء ، فلم يزد ذلك إلا زهداً فى الدنيا ، كذلك حال الخلفاء الراشدين ومن أتى بعدهم ، الذين ضرب بهم المثل فى الزهد مع أن خزائن الأموال كانت تحت أيديهم يدبرون بها شؤون الرعية ، وينفقون منها بسخاء فى مصالح المسلمين ، ويسدون بها حاجة المعوزين .

ولقد قال سهل بن عبد الله : وربما يملك العبد الدنيا ويكون أزهد الخلق في زمانه ، مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي كان يميز بين الزيت الذي يسرج لنفسه ، والزيت الذي يسرج للعامة ، والذي يصحح الزهد عند الصوفية ثلاثة أشياء أحدها علمهم أن الدنيا ظل زائل وخيال زائر ، كما ورد في الآثار الذي روى فيه أن رسول الله ﷺ قال لأبي هريرة رضي الله عنه يوما : يا أبا هريرة ألا أربك الدنيا جميعها بما فيها ؟ قال بلى يا رسول الله ، فأخذ بيده وأتى به وادياً من أودية المدينة ، فإذا بمزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال : يا أبا هريرة ، هذه الرؤوس كانت تحرس كرحصمكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هي اليوم عظام بلا جلد ، ثم هي صائرة رمادا وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قدفوها من بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت ريشهم ولباسهم ، فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك ،

وثانيها علمهم أن وراءها داراً أعظم منها قدرا وأجل خطرا ، وهي دار البقاء . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ،

وثالثها علمهم أن زهدهم فيها لا يمنعهم شيئا كتب لهم منها ، وأن حرصهم عليها لا يجلب لهم مالم يقض لهم منها فما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وكان شعارهم دائما قول بعضهم :

لا تركن إلى الثياب الفاخرة واذكر عظامك حين تسمى ناخرة
وإذا ذكرت زخارف الدنيا فقل لبيك إن العيش عيش الآخرة

هـ - الصبر :-

وهو نصف الإيمان ، وسر سعادة الإنسان ، ومصدر العافية في البلاد ، وعدة المؤمن حين تنور العواصف والأنواء ، ومنازه في حلك البأساء .
والصوفي يتخذ من الصبر مسلكا للرياضة والمجاهدة ، ومقاومة ما عساه تسول

له به نفسه التي هي عنصر الشرف فيه ، والحاجز بينه وبين الاتصال بربه ، ولا عجب ،
فأعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك كما قال رسول الله ﷺ :
وللصوفية في الصبر كلام عجيب ، ومنطق طريف ، فقد سئل الشبلي رحمه الله عن
الصبر فتمثل بقوله :

عبرات خططين في الخلد أسطراً قد قراها من ليس يحسن يقرأ
إن صوت المحب من ألم الشوق وخوف الفراق يورث ضراً
صابراً الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبراً
ودخل ذو النون المصري على مريض يموده ، فبينما كان يكلمه أن أنه ، فقال
له ذو النون : ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال المريض : بل ليس
بصادق في حبه من لم يتلذذ بضربه ، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لمسامات
ولده الصالح : إن الله أحب قبضه ، وإني أعوذ بالله أن تكون لي تحبة في شيء من
الأمور يخالف محبة الله .

لله در الصوفية ، فقد تعرضوا الرضوان ربهم الأكبر في ظلال الصبر ، وكانوا
جديرين بأن يفهم ربهم أجرهم بغير حساب ، ولنعم أجر الصابرين .

٦ - الرضا :-

وهو أسمى مقاماً وأشرف غاية من الصبر إذ هو السلام الروحي الذي يصل
بالعارف إلى حب كل شيء في الوجود ، حتى أقدار الحياة ولاوائها ، حيث يتصورها
خييراً ورحمةً ويتأملها بعين الرضا فضلاً وبركة .

قال عامر بن قيس : أحببت الله حباً هون على كل مصيبة ورضائي بكل بلية
فلا أبالي مع حبي إياه علام أصبحت ؟ ولا علام أمسيت ؟

وكان بلال رضي الله عنه يعالج سكرات الموت بأسماء وهو يقول وافرحتاه :
غدا ألقى الأحبة : محمداً وصحبه ،

وكان عمار بن ياسر رضى الله عنه يعذب بالنار وهو لا يشعر إلا بأنه في روضة من رياض الجنة .

وقد روى أن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قطعت رجله ومات أعز أولاده في ليلة واحدة ، فدخل عليه أصحابه فمزوه فقال : اللهم لك الحمد كان أولادى سبعة فأخذت واحدا وأبقيت ستة . وكانت لى أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت ثلاثة فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ولئن كنت قد ابتليت فلقد عافيت .

ولقد كانت نعمة الرضا من أهم العوامل فى تلك السكنية التى شملت قلوب العارفين ومن أقوى الأسباب فى محق النوازع التى يوجدتها التفسير فى حظوظ الحياة مما يجلب لصاحبه القلق والحيرة والاضطراب .

٧- المحاسبة :-

وهى تهيئة الوازع الدينى فى النفس ، وتربيتها على حساسية اللوم الباطنى الذى يجردنا من كل ما يقف أمامه عقبة فى طريق الصفاء والمحبة . والإيثار والإخلاص . وللصوفية فى هذا المقام قدم راسخة ، وجهاد ومشكور ، حتى إنهم خرجوا من الدنيا ولم يتبلغوا منها إلا باليسير من الزاد ، والتأفة من الطعام والشراب . وما أشبه حال الصوفية فى ذلك بما كان يأخذ به النبى ﷺ أصحابه ويتجه بهم وجهات روحية خالصة ، نحو غرس ذلك اللوم الباطنى فى نفوسهم .

فلقد روى أن رسول الله ﷺ خرج يوما من بيته يطوى بطنه على الجوع فالتقى به صاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فعلم منهما أن أمرهما كأمره وأنهما لا يجدان قوت يومهما . والتقى بهم رجل من الأنصار لم يتجدعه بشاشتهم ، فعلم أمرهم فاستضافهم ، فلما وصلوا إلى منزله وجدوا تمرا وماء باردا ، وظلا وارفا ، فلما تبلغوا بتمرات ، وشربوا من الماء قال صلوات الله وسلامه عليه : لتسملن يومئذ عن النعيم . ولأنه ليكاد يأخذك العجب من أمر رسول الله ﷺ الذى اعتبر هذا الزاد

الثافه القليل هو النعيم الأكبر الذى يسألهم عنه ربهم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

أليس فى هذه اللفتة الكريمة من الرسول ﷺ نفحة صوفية ترمى إلى طبع النفس بطابع الوازع القوى ، والاحساس المرفف ، والشعور الدقيق بالنبعة الكبرى والمسئولية الضخمة فى كل تصرف تهدف إليه النفس بين حين وآخر ؟

٨- التوكل :-

يعتقد الصوفية رضوان الله عليهم أنه لا بد للمبدى من غاية مطلوبة ، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية ، فأشرف غاياته التى لا غاية له أجل منها عبادة ربه والانابة إليه ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوه ، وأعظم وسائله التى لا وسيلة له غيرها التوكل على الله ، والاستعانة به والتفويض إليه ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

وقوام التوكل عندهم علم القلب وعمله أما عمله فيتمثل فى اليقين بكفاية وكيله وكال قيامه بما وكله إليه وأن غيره مهما بلغ ما بلغ لا يقوم مقامه فى ذلك . وأما عمله فيتجلى فى ذلك الاطمئنان إلى الله وتسليم أمره ورضاه بتصرفه .

وليس التوكل ترك الأسباب والتخلي عنها بل معناه انحصار الأمل فى الله والاتجاه إلى تدبيره وحكمته ، وعدم تعلق القلب بالأسباب لأنها وحدها لا تغنى عن الله شيئاً . وإن كان لا بد من التوصل بها إلى الهدف والغاية ، نزولاً على مقتضى الحكمة الإلهية فى ربط الأسباب بالمسببات ، والنتائج بالمقدمات .

ورحم الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فلقد مر على جماعة قعود فقال لهم من أنتم ؟ قالوا نحن المتوكلون قال بل أنتم المتواكلون إنما المتوكل على ربه رجل ألقي حبة فى بطن الأرض وتوكل على ربه . وفى منطق الصوفية ما يشير إلى ذلك المعنى فقد قال أبو سليمان الداراني رضى الله عنه ، ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك

للصلاة وغيرك بقوتك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد ، وقال بعض العارفين :-

توكل على الرحمن في الأمر كله ولا ترغب في العجز يوما عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يسقط الرطب
ولو شاء أدلى الجذع من غير هزه ولكن كل شيء له سبب

٩ - الذكر :-

وهو شعار المحبة وقرّة عين العارف بربه ، فيه يربط لسانه ، ويطمئن قلبه ، ويشرح صدره .

يذكر الصوفي ربه في كل لحظة ونفس ، فيجد في ذلك برداً وسلاماً ، ينسيانه

نفسه ، ويوصلانه إلى حضرة ربه .

يذكر الصوفي ربه ، فيسير بخطى واسعة نحو مصدر النور القدسي الأسنى ، وما يتم بعد أن يتسنى الذروة ، حتى يبهو ذلك النور ، فيعود وهو كليل الطرف مبهوت من الجلال والاشراق :

يذكر الصوفي ربه ، لأنه محب لله ، والمحبة لا يجد مع حب الله للدنيا لذة ، ولا يغفل عن ذكر محبوبه طرفة عين ، فهو إن نطق قائماً ينطق بالذكر ، وإن سكّ قائماً يشغل بالفكر أو لسان حاله دائماً يقول :

فإن نطقت فلم ألق بغيركم وإن سكّمت فأنتم عند إضماري

وإن هيام الصوفية بالذكر ، حولهم إلى أقباس روحية وذوقية ، وجعل حياتهم أوتاراً دقاً تصدح بأعذب الألحان في عالم الأرواح والأذواق .

والصوفية رضوان الله عليهم يتمثلون الذكر في صور جذابة تفصح عنها الحكاية الآتية :

قال أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي : أخذني شيخني من يدي وأجلسني في إيوان

ومديده فأخرج كتابا وأخذ يقرأ ، فتطلعت إلى معرفة هذا الكتاب ، فلاح المسيح هذه الحركة ، فقال يا أبا سعيد : إن مائة وأربعة وعشرين ألف نبي بعثوا ليعلموا الناس كلمة واحدة وهي : الله ، فمن سمعها بأذنه فقط لم تلبث أن تخرج من الأذن الأخرى أما من سمعها بروحه ، وطبعها في نفسه وتذوقها حتى نفذت إلى أحماق قلبه وفهم معناها الروحي وألهم حبها فقد انكشف له كل شيء .

وقال العارف الشعرائي في المنن : وما من الله به على مواظبي أول دخولي لطريق القوم على ذكر الله بلفظ الجلالة أربما وعشرين ألف مرة في كل يوم وليلة على عدد الأنفاس الواقعة في الليل والنهار ليسكون حكى إن شاء الله حكم من لم يغفل عن الله نفسا واحدا .

أما بعد : فإن تلك المقامات والأحوال التي يتوسل بها الصوفية إلى الوصول إلى الله ، والانس بقربه كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، إذ هي تدور حول معنى واحد هو أشرف وسيلة إلى أنبل مقصد ، وقد قال بعض العارفين مؤكداً هذا المعنى : -

الله قل وذو الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل غير الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال

وفي الحق : إن تلك المعاني الروحية العجيبة التي امتاز بها رجال التصوف الكرام لهم روح من عند الله أمدهم بها ، وتوفيق إلهي صاحبهم في طريقهم ، حتى فازوا بمكرم المثوبة . وشرف العقبى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

الحب الإلهي

وهو غريزة إلهية في النفس ، تنزع بها إلى تفهم حقيقة بها ، والشوق إلى الاتصال بها ، ويزداد الحب كلما يزداد الإيمان ، وعلى مقدار الحب تكون السعادة ، ويكون النعيم .

وحب الله تعالى يسمى بالنزوق الإنساني ، إذ يحول صاحبه إلى لطيفة راضية مطمئنة لا يصدر عنها شر ولا عدوان .

وللصوفية في هذا التسمي منطق طريف ، فهم يرون أتباع الشرع طلاب جنات و نعيم ، أما هم ، فيرون أنفسهم عشاقا لرب الجنة وشتان بين من يضافي المالك ، ومن يتعلق بالمملوك .

وحينما نقرأ كلامهم في ذلك نعرف أن جنتهم الكبرى التي يرجونها ، هي رضا الله ولقياه . وأن النار العظمى التي يرهبونها هي البعد عن سمره ، وجميل أنسه ، وإشراقه وجهه ، ومحراب نجواه .

لقد قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها : وإلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فأحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك ، فلا تحرقني بإلهي من جمالك الأزل ، وفي هذا الكلام شعور صادق ، وعاطفة روحية ، قوامها التضحية وإنكار الذات لاطمعا في ثواب ، ولا رهبة من عقاب .

ولقد كان بعض العارفين يطوف حول الكعبة ، فتجمعت والقراطة ، على الناس فقتلهم في الطواف حتى وصلوا إليه ، فلم يقطع الطواف حتى سقط من ضرب السيوف صريعا وأشد .

والله لو حلف العشاق أنهم موتى من الحب ما ماتوا وما حنثوا ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

والحب الإلهي هو الذي جعل الصوفية لا يرون غير المعاني ولا يعبأون بالمظاهر والأشكال ، ولقد كان من أم الوسائل عذم للظفر بالجنة الروحية ، وما تجلى فيها من أقباس الحنان ، أنظر إلى ابن العربي رضى الله عنه يقول :

لقد كنت فيما مضى أنكر صاحبي إذالم يأت دين إلى محبته دان
قد صار قلبي قابلا كل صورة فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت تيران ومعبد طائف وألواح تورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني
وهكذا يتجلى في شعر ابن العربي شعور الحب ، وعواطف الروحي ، وشجاعة
المستشهد ، وإيمان الناسك ، وسلوى العاشق ، حتى أنه ليصور لنا هيامه بالحب إلى
الحد الذي جعله يعتقد أنه لا دين خير من دين الحب ، والشوق إلى الله وأن الإسلام
دين المحبة . لأن محمدا ﷺ كان حبيب الله .

ولقد اخترع الصوفية أسلوبا مجازيا في شعرهم ، إلى حد يتعذر على دارسه في
أكثر الحالات أن يميز بينه وبين الغزل ، ويسأل نفسه هل قيل هذا الشعر في معشوقة
من البشر ، أو منشودة من الممارات ؟ ؟

ولقد أوضح لنا ابن العربي رضى الله عنه تلك الحقيقة فقال : ليس في مستطاع
أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ، وغاية ما في هذا المستطاع هو الرمز عن تلك
الظواهر لأولئك الذين أخذوا في ممارستها ، لذلك عمد بعضهم إلى الخمر ، وآخرون
إلى الحب ، وهكذا ، الأمر الذي حدا بالكثير من قصار النظر إلى قذف الصوفية
بالشهوات الدنيوية ، والميلذات الجسمية .

والحب الإلهي يصل بالإنسان إلى حب كل شيء في الوجود ، لأنه من صنع
الحبيب وأنى للمحب الصادق أن يسكره ما خلق الحبيب الأعظم عز وجل .
ومن أخبار الصوفية رضى الله عنهم ، جهنم للناس الذي تجلى في الكرم والإيثار ،
وعطفهم على الحيوانات والعجارات والحشرات ، الذي تمثل في البر والرحمة ، ولقد

قيل إن أبا يزيد البسطامي رضي الله عنه اشترى وهو في همدان طعاما ووضع بقاياها في
جيبه ، وما إن وصل إلى بلده حتى وجد جماعة من النمل في جيبه كانت قد علقت بالطعام
فما وسعه إلى أن عاد ينهب مئات الآمبال إلى همدان لكي يرد تلك المخلوقات الصغيرة
إلى أوطانها .

يمثل هذا الذوق الانساني ، وصل الصوفية إلى الاطمئنان والرضا ، وفي ظلال الحب
الإلهي رأوا متعاً روحية دونها متع الحياة وشهواتها ، وحسبهم أنهم يسمرون مع
الله ، وينعمون بقربه ، ويحسون بفضله وجوده ، ورضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك
لمن خشى ربه .



بين الحقيقة والشرعية

للحياة الروحية أسرار عظيمة يتذوقها المحب ، وينعم بها العابد ، فهي تصل بصاحبها إلى عالم المنجاة والإلهام . لذلك قال بعض العارفين : إن قلبي ليسكن اليوم عالمالا يعرف غيري عنه شيئا ولو سئلت ما بي؟ لأعجزني أن أجيب ، أجل : إن ذلك العالم الذي سما إليه ذلك العارف لأعظم من أن يصوره القلم ، أو يوضحه الكلام ، إنه عالم الأنوار والتجليات التي يصاحبها فيض من الاشراق والهبات ، كما يقول الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة التلمتين والرواية . إنما هو نور يقذفه الله في قلوب من أطاعوه فأحبههم .

والصوفية رضوان الله عليهم يتخذون من ذلك أساسا للعلم الباطني ، لأن طاعتهم لله تستوجب محبته ، التي يصادفها الفيض والإلهام .

وإذا عرفنا أن العبادة وصفاء النفس سبيلان شرعيان لكشف الحقائق العلمية ، وإدراك الأمور الغيبية بواسطة الإلهام الروحي ، فهمنا أن الصوفية بخواطرم القلبية لا يعطلون حداً من حدود الله ، ولا يخالفون شرعه .

كيف ! لقد أتت لهم تلك الفيوضات بعد أن ذابوا شوقاً إلى ربهم ، وتقطعت أوصالهم من محبة مولاهم .

ولقد اصطالح الصوفية على أن علوم الشرع الظاهرة هي الشرعية ، وأن ثمرتها الروحية وما يتبعها من فيض ومعارف باطنية هي الحقيقة ، وعلى ذلك ، فبين الشرعية والحقيقة أو الظاهر والباطن ارتباط وثيق ، كلاهما متمم الآخر ، وليس بينهما من الفرق إلا ما يكون بين اللفظ والمعنى ، لا غنى لأحدهما عن الآخر ، حتى لقد قالوا : من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد نفسق ، وفي القرآن الكريم مثال واضح يقرر على الظاهر والباطن ، ويوضح الحقيقة والشرعية .

يقول الله تعالى : « فوجدنا عبداً من عبادنا هو الخضر عليه السلام -
آتيته راحة من عندنا ، وعليناه من لدنا علماً » قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن
مما علمت رشداً ؟ قال إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به
خبراً . قال مستجدي إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً . قال فإن أتبعني فلا
تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها
قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا لأمرا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي
صبرا . قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى إذا
لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل
لك إنك لن تستطيع معي صبرا . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد
بلغت من لدني عزرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطاعا أهلها فأبوا أن يضيفوهما
فوجدنا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال
هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . »

إلى هنا تربنا الآيات السكرية مشهدا رائعا يدو فيه سيدنا موسى كليم الله - على
صورة التلييد الغاضب الثائر على فليئات معلمه التي تذهب بلب الحليم وتدعه حيران ،
ويمثل فيه الخضر عليه السلام موقف الأستاذ المحنك الخبير .

نعم : يخرق الخضر السفينة ، ويقتل الغلام ، ويقيم الجدار ، بدون أجر لقوم منعوها
كرم الضيافة . يفعل تلك الأعاجيب !! لأنها بغى وعدوان ، ولكن لما تدخره في طي
الزمان ، من أسرار هي في صالح الانسان ، وهنا ينجلى الموقف وينكشف القناع عن
حقيقة سافرة ، سر لها قلب موسى وخاطره ، كما اعتقد أن هناك علوما باطنية وفيوضات
قلبية أفاء الله بها على عباده المصطفين الأخيار .

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم
ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما
طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان

أغلامين يتيمين في المدينة وكان تحتهم كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا .

ونقرأ في شريعتنا الغراء شيئا لما كان بين موسى والخضر عليهما السلام من خلاف . فقد وقع مثله بين الرسول ﷺ وبين أصحابه رضي الله عنهم حول أصل سرق حكم عليه الرسول ﷺ بالقتل بدل قطع اليد لأنه أدرك بقلبه أن مصيره القتل نتيجة لسرقته المتتابعة ، التي لا تقف عند حد ولا يردعه عنها حد إلا القتل .

روى النسائي عن الحارث بن حاطب أن رسول الله ﷺ أتى بلص فقال اقتلوه ، فقالوا يارسول الله إنما سرق !! فقال اقتلوه ، فقالوا يارسول الله إنما سرق !! قال اقطعوا يده : ثم سرق بعد ذلك فقطعت رجله ، ثم سرق في عهد أبي بكر حتى قطعت قوائمه كلها ، ثم سرق الخامسة فقال أبو بكر رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ أعلم بهذا حين قال اقتلوه : فأمر بقتله .

كما نقرأ في كتب السنة الصحيحة شواهد كثيرة توضح لنا في جماتها الشريعة والحقيقة اللتين هما من أصول الصوفية رضي الله عنهم .

وقد قالوا في تفسير قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، النعمة الظاهرة مثل الطاعات والباطنة خواطر القلوب وكشفها ، والعلماء العابدون هم ورثة الأنبياء ، وليس ميراث النبوة بالمال أو المتاع ، وإنما ميراثها في العلم والمعرفة ، والفيض والرضا والاشراق .

تفسير قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، النعمة الظاهرة مثل الطاعات والباطنة خواطر القلوب وكشفها ، والعلماء العابدون هم ورثة الأنبياء ، وليس ميراث النبوة بالمال أو المتاع ، وإنما ميراثها في العلم والمعرفة ، والفيض والرضا والاشراق .

الكشف والالهام

وهو نور يحصل للمسالكين نتيجة لما يأخذون به أنفسهم من مجاهدة وخلوة وذكر . فهنا لك ينكشف لهم حجاب الحس ، وتقطع دونهم أسباب المادة وتنعكس أبصارهم في بصائرهم ، فينظرون بنور من الله وتمجي أمامهم مقاييس الزمان والمكان فيطامون على عوالم من أمر الله اطلاعا لا يستطيعه من لا يزال مقيدا بقيود الحس ولا يتسع له إلا تلك القلوب النيرة ، التي زالت عنها ظلمات الحياة وغواشيتها ، وانقشعت عنها غيوم الماديات وأوضارها .

ويرجع هذا الكشف إلى أن العبد إذا انصرف عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن ظهرت روحه على نفسه المتلبسة ببدنه ، وتلقى حينئذ المواهب .

والقلوب عند الصيرفة : نوعان : فقلب لا يولد ولم يأن له أن يولد بل يظل جنينا في بطن الشهوات . والغنى والجهل والضلالات ، وقلب ولد وخرج إلى فضاء التوحيد وحلق في سماء المعرفة وتخلص من ظلمات النفس والهوى ، فقرت عينه بالله ، وأنارت جوانبه أشعة اليقين ، وجعلته مرآة شفافه لا مساغ للشيطان إليها ، ولا سلطان له عليها فلا يشعر صاحبه إلا بالله . وكل ما كان يربطه بالوجود من قبل فهو عدم وفناء .

وليس هذا ببعيد فالطاقة الروحية مبثوثها القلب النير العصافي وقد ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ قال : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ، وورد أيضا : « احذروا فراسة المؤمن فهو ينظر بنور الله » .

ويؤيد ذلك أيضا ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجه جيشا بقيادة « سارية » ، وبينما كان يخطب عمر على المنبر إذ رأى بنور من الله مركز جيش سارية وأنه يعوزه أن يحمي ظهره بالجبل ، حتى لا ينقض عليه العدو . فجعل ينادى بصوت

جهورى سمعه من فى المسجد ، بل اخترق صوته تخوم الأودية والجبال ، والبيوت
والتلال حتى وصل إلى مسامع الجيش « يا سارية الجبل الجبل » وكان إذ ذاك فى
بلاد فارس فما إن سمعه سارية حتى احتاط بجيشه وحى ظهره بالجبل ، فكان له النصر
والغنيمة . ولما أرسل سارية رسول جيشه إلى أمير المؤمنين يخبره بالنصر والغنيمة
سأله أهل المدينة هل سمع الجيش وهو فى بلاد فارس شيئاً يوم الواقعة ؟ قال نعم
سمعنا « يا سارية الجبل الجبل » وقد كدنا نهلك فنجأنا إليه ففتح الله علينا .

وهكذا تنطلق القلوب النيرة من مقاييس الزمان والمكان ، إلى قدس أسرار
الايمان ، وتشرق فيها فيوض الرحمة وأسرار الحكمة ، حتى تشف وترق ، بعد أن يحلوها
الحب . ويغذيها المعرفة ويظهرها النجوى فتتنقل فى ملكوت السموات والأرض
وتحيط بكثير من العوالم ، ولا شك أن تلك الأسرار الروحية لا تدرك بمجرد الكلام
فن لا نصيب له فى شيء منها ، فلا يضره أن يكتبها إلى أربابها ، وأن يعطى القوس بآربها .

فلكشفة أفرام لها خلقوا وللحجة أكباد وأجفان



فكشفت أسرارها من تحت الظلمات ، فأنارت فى أعين أولئك الذين
كانوا فى ظلمات ، فأنارت فى أعين أولئك الذين
كانوا فى ظلمات ، فأنارت فى أعين أولئك الذين

الوجد الصوفي

وهو سر قدسى بين الصوفية وبين ربهم ونفحة تجلّ بالرضا والحب على قلوبهم وصلوا إليها وتعرضوا لها بحبهم لله واستغراقهم في التأمل في عظمته والتفكير في سلطانته . وعندئذ تقشعر جلودهم وترتعد فرائضهم وتسيقظ أرواحهم في نشوة ربانية لا يعرفها إلا من ذاقها .

وقد عاش الصوفية بهذا الوجد يترجمونه أحياناً من الحب ويتدعون به ألواناً من العبادة وضروباً من التمجيد وأساليب من المناجاة حتى غدت الحياة لديهم محرراً كبيراً للتبذل والطاعة وميداناً فسيحاً للذكر والالهام .

قال أبو سعيد بن الأعرابي رضى الله عنه : - الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإنباس المفقود وهو فناؤك من حيث أنت ، والذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلاقات والأسباب لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفها ونجعت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خالياً فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوماً عنده ،

وقال «سرى السقطى» ، الوجد هو فقدان الشعور حتى أنه لو ضرب من هو في هذه الحال بسيف على وجهه لما شعر به ، وكأنه يشير إلى ما قد حصل لأبي حمزة الصوفي رضى الله عنه حيث وافاه الوجد في بغداد فما أفاق إلا وهو في وسط الصحراء . والوجد عند الصوفية استغراقات ومكاشفات تنشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه كما يقول الله تعالى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وكما يقول « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين

يخشون ربهم ثم تملن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، وهذا الوجد يعرف في اصطلاحهم بالوجد المهاجم ، وقد يكون متكلفا لاستدعاء الأحوال الشريفة ، واكتساب الخواطر والمكاشفات بالحيلة حيث يكون للكسب مدخل في جلب تلك الأحوال وهذا كما أمر الرسول ﷺ من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن فان هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ، ثم تتحقق أواخرها ، وغالبا ما ينتهي التطبيع إلى الطبع .

وقد عرف الوجد أول ما عرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي قال محدثا عن وجهه ، شيبتي هود وأخواتها ، وقد أسرع الشيب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكثرة حزنه وخوفه من ربه وكان ذلك الخوف على قدر علمه بعظمة الله وجلال سلطانه .

كما روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، قاله حسبك وكانت عيناه تذرفان بالدروع وفي رواية أنه صعق .

وهكذا كان حال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فمنهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات في غشيته .

سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقرأ قوله تعالى : إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، فأخذه الوجد بقوة فلم يتمالك أن صاح صيحة خر عقبتها مغشيا عليه وحمل إلى بيته فلم يزل مريضا في بيته شهرا .

وروى أن زرارة بن أبي أوفى - وكان من التابعين - كان يؤم الناس فقرأ مرة قوله تعالى : فاذا نقر في الناقور ، فصعق ومات في محرابه .

وهذا أبو جرير - من التابعين - قرأ عليه بعض أصحابه القرآن فشقق شهقة فاضت بعدها روحه إلى بارئها .

وللصوفية رضى الله عنهم أحوال عجيبة في مواجدهم وهى توضح لنا فى جملتها ما كانوا عليه من خوف وإشفاق ، ومحبة وأشواق إلى لقاء ربهم والتمتع بوجهه الكريم .

سمع رجل من أهل التصوف قارئاً يقرأ قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فاستعاضها من القارىء . وقد استغرق فى التفكير والمحاسبة وأخذ الوجد وهو يقول : كم أقول لها ارجعى وليست ترجع ، وزعق زعقة خرجت روحه بعدها .

وقال الجنيد : دخلت على سرى السقطى فرأيت بين يديه رجلاً قد غشى عليه ، فقال لى هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه ، فقلت اقرؤا عليه تلك الآية بعينها ، فقرئت عليه فأفاق ! فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من أجل مخلوق ، فبمخلوق أبصر . ولو كان عماء من أجل الحق ما أبصر بمخلوق .

وبعد : - فإن تلك الحالة الروحية التى يستغرق فيها الصوفية وتعرض لهم بشدة وقوة فى عباداتهم وتأملاتهم هى الدليل الواضح ، والحجة القاطعة على مبلغ علمهم بربهم وشوقهم إلى لقائه وإشفاقهم من عذابه ، فتسارة تهتز قلوبهم طرباً ونشوة ، وطورا تمشعر جلودهم خشية ورهبة ، وأحياناً تسبح أرواحهم خفاقة حول العرش ، ظامنة إلى الرضا تواقفة إلى الأنس والتمتع بالجلال والجلال .

وإن تلك المكاشفات النورانية قد كان لها من الأثر البالغ ما نلنسه فى ألحان عمر ابن الفارض وما نتذوقه فى حكم رابعة العدوية ، وما نستغربه فى تحركات الجنيد وما نحار فيه من استغراقات البسطامى وشطحات الصوفية رضى الله عنهم .

وإن الإنسان ليكاد يتصور ذلك الوجد الصوفى بما يعرض له فى حياته اليومية من مشاهدات تؤلم الحس وتهيج الشعور ، فقد يمر بحادثة مروعة ، أو يرى خطيباً جسيماً أو يقف على مشهد مؤسف ، فيتمشعر له ، جسمه وترتعد له فرائضه ، وقيل

تغيب روحه عن الحس والشعور ، بل إن الشاعر ليصور لنا تواجده لمجرد ذكر محبوبه فيقول :

وإني لتعروني لذكرك هزة كما انتفض العصفور بالله القطر
فهل بعد ذلك نستكثر على القوم تواجدهم عند ذكرهم لمحبوبهم الاعظم جل وعلا
واستغراقهم في مشاهدة عظمتهم وسلطانهم ، وهم أصحاب الرحاب الفسيحة ، والآفاق
الممتدة ، والسبحات الطويلة ، والتفكير العميق في جلال الله وعظمته ، حتى لم يعد
لغيره في قلوبهم فراغ .

لقد كان سهل التستري رضى الله عنه يقول : « أربعون سنة أكلم الله !! والناس
يظنون أني أكلهم » .

وهذا الكلام يصور لنا وجده بأبلغ وجه وأكده ، فالناس كلهم في نظره
فناء وعدم ، وليس بعد كلام الله له ومناجاته إياه أى كلام ، وليس يدرك ذلك إلا
أهله وذووه .



شطحات الصوفية

لكل صناعة لغة ، ولكل طائفة اصطلاح ورموز ، لا يفهمها إلا أصحابها ، ولا يستطيعها إلا أهل الاختصاص فيها .

وتلك حقيقة مسلمة لا جدال فيها ، ولا مكالبة حولها ، فالمنطق السليم يؤكد هذا وشواهد الواقع تسندها وتمززها .

ففى مثلاً للأطباء اصطلاحات ، وللمهندسين رموزاً وأشكالاً ، ولأرباب الفن لغات ، ولغيرهم كذلك .

وهكذا الحال عند ساداتنا الصوفية رضوان الله عليهم ، لهم لغتهم التى تعارفوا بها ، ورموزهم التى اصطلمحوا عليها ، وعباراتهم التى يترجمون بها عن أحوالهم ، ومواجدهم ومقامات سلوكهم .

وقد ترك لنا الصوفية رضوان الله عليهم ثروة طائلة ومادة غزيرة ، من تلك العبارات والأساليب هى تعد بحق عند المعارفين كنوزاً عابوية ، وعند المحبين آيات من النور والجمال .

واقدر كان مبعثها دائماً كثرة المواجد التى كانت أبرز شىء فى حياتهم التعبدية ، فكانت تفيض بقوتها وتهمج بشدة غليانها ، حتى تسيل على ألسنتهم عبارات بعيدة الخيال ، وأساليب غامضة المعنى بحيث لا يكاد سامعها يقف عليها ويأخذها على ظاهرها حتى يذهب فكره كل مذهب وقد يهلك مع الهالكين .

وهذه العبارات هى التى تسعى فى عرفهم بالشطحات التى تشبه الأسلوب الرمضى الذى يقصر عن تذوقه وإدراك ما ينطوى عليه من لم يشارك القوم فى طريقهم ، ذلك لأن الدليل لا ينفع فى فك هذه الرموز وحل مشكلاتها ، لا سيما وأن ما يعرض لأصحابها فيها ، إنما هو من قبيل الوجدانيات التى لا تخضع للعقل من ناحية ، والتى يعبر أصحابها عما ينكشف لهم ويتجلى عليهم من الواردات والمكاشفات بألفاظ

مبهمة وعبارات غامضة يشيرون بها إلى غير ما تدل عليه ظواهرها من ناحية أخرى .
 سئل أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه عن عمره ؟ فقال : أربع سنوات ، قيل
 وكيف كان ذلك ؟ فأجاب بقوله : « حجت عن الله سبعين سنة ، ولم أره إلا
 في السنوات الأربع الأخيرة وعليه ، فالسبعون الأولى ليست من عمره . »

وقد يعجب سامع من ذلك ، ويسائل نفسه وكيف يرى ربه وهو في هذه الدنيا
 والكنه سوف يقنع إذا تأمل فيما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ،
 سئل هل ترى الله ؟ فأجاب : « وكيف نعبد من لا نرى ! » ،

نعم . . هذه الرؤية رؤية قلبية روحية ، لا ينالها إلا من كان أهلاً لها ، ولقد
 قرىء على أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه قوله تعالى : « إن بطش ربك لشديد »
 فأخذه الوجد الذي فاض على لسانه بتلك العبارة الجريئة « بطشى أشد » ،

وقد تقوم في النفس ثورة عاصفه حينما تقف على تلك العبارة ، لأنها تبدو في
 صورة غير مفهومة ، ولكن إذا تأملناها عندها يسيراً ، لفهمنا ما يريد أبو يزيد منها
 كما قال ابن العربي رضي الله عنه : « إن بطش العبد بطش لا تلبسه الرحمة ولا الحكمة
 وبطش الحق سبحانه وتعالى فيه رحمة بالمبتطوش به ، ومن هنا كان بطش العبد أشد
 لقسوته ، فكأنه يشير بكلامه هذا إلى معنى آخر ، لا دلالة لكلامه عليه ، فهو يشير
 إلى مظهر الرحمة الواسعة التي تحلي بها رب الأرباب وكتبها على نفسه ، حتى في حالة
 انتقامه وعذابه ، كما يشير إلى عنصر القسوة في الإنسان الطاغية البعيدة عن الرحمة والحكمة . »

وهذا شبيه كل الشبه بما روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : « لقد خلق الله
 العالم دون روية ، فما أن فرغ من كلامه حتى هبت عليه عاصفة من اعتراضات أصحابه
 حتى إنهم شكوه إلى رسول الله ﷺ ، فتبسم ﷺ وعلّمهم أن الروية والتفكير من
 صفات العجز التي يتنزه عنها الخالق العظيم ! »

ويؤكد لنا مركز الصوفية في شطحاتهم ما روى من أن سيدنا عمر بن الخطاب

رضى الله عنه قال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « كيف أصبحت يا معاذ ؟ فأجاب بقوله : أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء ١١ »

فهم سيدنا عمر أن يبطش به ، فقد حسبه أنه قد خرج أو لحقته تلك الفتن المظلمة التى (يسمى فيها الرجل مؤمناً ويصبح كافراً ، ويصبح مؤمناً ويمسى كافراً) ولكن علماً كرم الله وجهه تداركه بحكمته وسعة علمه وتفكيره ، ففسر له « الفتنة » بالمال والولد كما قال تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » وفسر « الحق » بالموت والسيدة عائشة رضى الله عنها كانت تقول : كلنا يكره الموت ، وفسر « الصلاة بغير وضوء » ، بالصلاة على رسول الله ﷺ وهى لا يشترط لها وضوء ، « وفسر الأخيرة » بأن له زوجة ولدا ، والله سبحانه وتعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، فما وسع عمر رضى الله عنه إلا أن اتهم نفسه بالخطأ ، وسجل عليها القصور بعد ما حمل كلام معاذ على ما يتفق عليه وما عرف به من الصلاح والتقوى ، حتى قال : « لولا على هلك عمر » ترى فى هذا الحوار الدقيق بين عمر ومعاذ أن عمر رضى الله عنه كاد يهلك بقتله معاذاً ، وليس لذلك من سبب إلا عدم إدراكه من أول وهله لما يرمى إليه معاذ من خيال بعيد ومعنى عال قد لا تدل عليه تلك الألفاظ الغامضة .

وهكذا يهلك كثير من الناس فى عصرنا هذا بالنيل من ساداتنا الصوفية ، والانكار عليهم فى شطحاتهم ، بل قد يتناول عليهم كثير من لاخلق لهم إلى حد تكفيرهم ، ولا شك أن ذلك مرجعه قلة التأمل وضيق الفكر وقصور النظر .

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالابصار وقد يكون للمعترض بعض العذر لأنه لم يسلك طريقهم ، ولم ينهض إلى مقامهم ولم يتذوق حالهم حتى يستطيع أن يحكم لهم أو عليهم .

ولكن من أدب الاسلام الرفيع أن لا نخوض فى حق خواص هذه الامة ، وحسبنا

أن نسلم لهم أمورهم التي انفردوا بها . حيث جاوزت الأحوال والمقامات ، وكانت فوق الإدراك والتصور .

ولهل مدار بين سيدنا موسى والخضر عليهما السلام من حوار ، يكون صورة واعظة لكل من ينصب نفسه للجدل حول الصوفية وشطحاتهم .

وقد قال عبد القادر الفاسي رضي الله عنه . . . ولا يخفى هذا على من له ممارسة باصطلاحهم ، فيكفيها التسليم والتصديق لما قصرت عنه مداركنا من مزاياهم ، فاشدد يدك على تسليم ما فعلوا ، وظن خيرا ، ولا تعباً بمن عدل ، إذ التصديق بطريقهم ولاية . والاعتراض جناية ، فما كل الحكم تظاهر ، ولا أسرار الرجال تبدو لكافة الناس .

ورحم الله الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فلقد كان مع علمه وسعة أفقه ، ونفاذ بصيرته ، وعلو كعبه في الفقه والحكمة ، يصحب السادة الصوفية ، ولم يعرف عنه أنه أنكر عليهم بعض أخوالهم أو اعترض على شطحاتهم أو تعرض لتواجدهم ، وسائر أخوالهم ، بل كان رضي الله عنه يقف من كل ذلك موقف المعجب الواثق المطمئن ، ثم يترقى في تواضعه وتنزله إلى حد الاستفادة منهم في غبطة وسرور وفي تقدير وثناء . فهل بعد ذلك نظن بأنفسنا خيرا ونأنس في أنفسنا القدرة والاستطاعة على النقد والتجريح ؟ (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه)

هذا : - وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته كلاما حول شطحات القوم ، هو من الإنصاف بمكان . قال : . . . وأما الألفاظ الموهمة فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب ، والمجبور معذور ، فمن علم منهم فضله واقداؤه ، حمل كلامه على القصد الجميل من هذا ، وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها ، كما وقع لأبي يزيد ، ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر ، فواخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه .

وعلى هذا الأساس ينبغي أن نسأل أهل الذكر فيما نجهله من شطحياتهم ، وخير من ذلك التفويض والتسليم لله ، فهو أعلم بحالهم ، وهو الذي غفرهم من فيض أسرارهِ ما جعلهم بذلك ينطقون ، والله في خلقه شئون ، ففي ذلك السلامة والعافية والنجاة من من العثرة والزلل .

تفسير الصوفية للقرآن

من مزايا القرآن الكريم إحاطته الشاملة بالعلوم والمعارف ، وإشارته السكاملة إلى شتى الأسرار والمعاني .

فهو مدد فياض ، ومادة غزيرة ، يفي بحاجات الباحثين والدارسين ، فأهل اللغة يجدون فيه قواعدهم ، وأهل الأدب يأخذون منه أخيلتهم ، وأهل المنطق يلجأون إليه في أقيستهم ، وأهل الفن يتعرفون فيه إلى مباحثهم .

كذلك أعمل المعرفة وأرباب الأحوال والمقامات يستنبطون من القرآن إشاراتهم العالية ، ومعانيهم الروحية ، وأسرارهم الباطنية ، مصداقا لقول الله الكريم : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وفي حديث أخرجه أبو نعيم أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه)

وتفسير السادة الصوفية : ليس فيه تحريف للكلم عن مواضعه ، أو تعطيل لظاهره ، أو تقديم لما أخر الله ، أو تأخير لما قدم الله ، وإنما هو معان استفادوها من القرآن على حسب فهمهم لآياته ، القائم على أساس العبادة والتقوى ، مصداقا لقول الله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقد قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في قلوب من أطاعوه فأحبههم » وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : « ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل في كتابه »

ومن تفسير السادة الصوفية للقرآن ما فسرته سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه الذى كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، بيد أن الله تعالى قذف في قلبه نورا جعله ينطق بالحكمة الإلهية في تقديم السمع على البصر في آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » ، يقول رضى الله عنه : « إن السمع أقوى فائدة وأعم نفعاً ، لأن أسرار الربوبية

موقوفة عليه ، وبيان ذلك أنا لو فرضنا بنى آدم لاسمع عندهم أصلا ، وجاءهم رسول من عند الله يخبرهم بأنه رسول الله إليهم ، فهذا الصوت لا يرى ، ولا يسمع لهم حتى يسمعو أمثاله ، فيبقى الرسول عندئذ عاطلا ، فإذا قال لهم وآية صدق معجزة كذا وكذا لم يسمعه فيبقى عاطلا ، فإذا قال لهم وقد أمركم الله عز وجل أن تؤحدوه ولا تشركوا به شيئا لم يسمعه ويبقى أيضا عاطلا ، فإذا قال لهم وأمركم أن تؤمنوا بي وبجميع رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر لم يسمعه !! ويبقى أيضا عاطلا . فظهر أنه لو لم يكن سمع ما عرف رسول ولا مرسل ، ولا وقع إيمان بغيب ولا شهادة ، ولا صح اتباع شريعة ، ويلزم أن لا يكون ثواب ولا عقاب ، فترفع الجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ، وبالجملة قد استوجب بنوا آدم بالسمع الدرجة العليا ، ولحق من لحق منهم بالملا الأعلى ، فظهر أن السمع أقوى فائدة وأعم نفعاً .

ولقد سئل أبو بكر السكتاني عن قوله تعالى : « لا من أتى الله بقلب سليم » ؟ فقال : القلب السليم على ثلاثة أوجه : أحدها هو الذى يلقى الله عز وجل ، وليس فى قلبه مع الله شريك . الثانى : هو الذى يلقى الله تعالى وليس فى قلبه شغل مع الله عز وجل ولا يريد غير الله ، والثالث : هو الذى يلقى الله عز وجل ولا يقوم به غير الله . فى عن الأشياء بالله ، ثم فى عن الله بالله . يعنى يذهب عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكره ، بذكر الله له ومحبه إياه ، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه وبمحبه لهم أحبه وبقديم عنايته بهم أطاعوه .

وسئل شاه الكرماني رحمه الله عن معنى قوله عز وجل : « الذى خلقنى فهو يهدين » والذى هو يطعننى ويسقين « وإذا مرضت فهو يشفين » ؟ فأجاب بقوله : الذى خلقنى فهو يهدين الى لا غيره ، وهو الذى يطعننى الرضا ، ويسقين الحجة ، وإذا مرضت بمشاهدة نفسى فهو يشفينى بمشاهدته ، والذى يمينتى عن نفسى ويحيينى به . وقال الشبلى رضى الله عنه فى قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، أبصارهم الرءوس عن محارم الله ، وأبصار القلوب .. عما سوى الله .

هذا : وللسادة الصوفية مقدرة عجيبة على استنباط (إشاراتهم) من القرآن مع أن ألفاظه الكريمة لا تدل عليها دلالة ما ، من قريب أو بعيد ، اللهم إلا من قبيل الفهم الذي آتاهم الله إياه ، من ذلك ما أشار إليه أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى ، حين سئل عن المعرفة ؟ فقال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) أراد بذلك أن عادة الملوك إذا نزلوا قرية أن يستعبدوا أهلها ويجعلوهم أذلة لهم ، فلا يقدر أن يعملوا شيئا إلا بأمر الملك ، وكذلك المعرفة إذا دخلت القلب ، لا تترك فيه شيئا إلا أخرجه ، ولا يتحرك فيه شيء إلا أخرقته ولا يظن القاريء أن تفسير القرآن على ذلك النحو بدع من العلم !! فلقد سبقهم إلى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال في تفسير قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسيح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا .) تشير السورة الكريمة إلى أن أجل النبي ﷺ قد نفي إلينا .

فهذا التفسير من باب الإشارة ، التي كان مرجعها إلى الفهم الذي خصه الله به استجابة لدعاء النبي ﷺ حيث قال (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) فأدرك رضي الله عنه من مناسبة السورة الشريفة للظروف الخاصة التي أحاطت بالنبي ﷺ إذ ذاك ، ذلك المعنى الذي استنبطه .

ولقد شرح الامام الألوسي في تفسيره « روح المعاني » مذهب السادة الصوفية في تفسيرهم للقرآن ، قال في مقدمة تفسيره . (. . . وأما كلام السادة الصوفية في القرآن ، فهو من باب الاشارات إلى دقائق تنكشف على أبواب السالكين ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، وذلك من كمال الايمان ، ومحض العرفان ، لأنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا ، وإنما المراد الباطن فقط ، إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة ، توصلوا به إلى نفي الشريعة بالسكينة ، وحاشا ساداتنا الصوفية من ذلك ، كيف ؟؟ وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر ، وقالوا لا بد منه أولا ، إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار

القرآن قبل أحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب .
إلى أن قال : فلا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل ، بل أدنى ذرة من إيمان ، أن
ينكر اشتغال القرآن على بواطن يفيضها الحق سبحانه وتعالى على بواطن من شاء من
عباده ، ويأليت شعري !!

ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى (وتفصيلا لكل شيء) وقوله : (ما فرطنا في
الكتاب من شيء) !!

ويا للعجب ، ! كيف يقول باحتمال ديوان المتنبي وآياته المعاني الكثيرة : ولا
يقول باشتغال القرآن الكريم وآياته ، وهو كلام رب العالمين :

(سبحانه هذا بهتان عظيم) بل ما من حادثة ترسم بقلم القضاة في لوح الزمان إلا وفي
القرآن العظيم إشارة إليها ، فهو المشتمل على خفايا الملك والملكوت ، وخبايا قدس الجبروت
وقد ذكر ابن خلكان في تاريخه ، أن السلطان صلاح الدين لما فتح مدينة حلب ،
أنشد القاضي محي الدين قصيدة بائية أجاد فيها كل الاجادة وكان من جملتها : -

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب
فكان كما قال : فسئل القاضي من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته من تفسير ابن برجان
في قوله تعالى . (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون »
في بضع سنين)

قال المؤرخ . فلم أزل أنطلب التفسير المذكور ، حتى وجدته على هذه الصورة
وذكر له حسبا بطويلا . وطريقا في استخراجها ، وله نظائر كثيرة .

ومن المشهور استنباط ابن الكمال ، فتح مصر على يد السلطان سليم من قوله
تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون »
فالانصاف كل الانصاف التسليم للسادة الصوفية ، الذين هم مركز للدائرة المحمدية
ما هم عليه ، واتهام ذهاب السقيم فيما لم يصل لكثرة العوائق والعلائق اليه .
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالابصار

انتهى كلام الامام الألوسى رضى الله عنه ، الذى أعطانا فكرة صحيحة وصورة واضحة عن طريقة السادة الصوفية ، فى تفسيرهم للقرآن الكريم ، ولعمري إن هذه أسرار وأحوال لا يتذوقها إلا أربابها ، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه ، ولا يضيرها قصور الأفهام والعقول عنها ، والله درُّ القائل ..

ما ضرَّ شمس الضحى وهى طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصير

مصطفى الرقبي

القرآن الكريم

من نور القرآن الكريم استمد التصوف فكرته ، وعلى هديه القويم ، وتوجيهه المستقيم بنى أساسه وقواعده . . . والباحث المتأمل يجد التصوف مبشوثا في آيات القرآن مستكنا بأصوله في معالنه الواضحة ، وبياناته الصريحة ، نذكر أمثلة لذلك فيما يلي . - قال الله تعالى . (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . (فأتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . .)

فهم الصوفية من هاتين الآيتين وغيرهما أن الله تعالى هو الفاعل المطلق ، الذى تصدر عنه وتقوم به جميع أفعال العباد ، ولقد قالوا إن العبد من ربه سبحانه وتعالى بمثابة القلم من الكاتب الذى يمسك به ويحركه ، ويجرى به يده فيكتب ما يشاء . وعلى هذا الأساس قامت فلسفتهم فى التوحيد المطلق لله عز وجل ، والعقيدة الثابتة التى سار عليها أهل السنة والجماعة .

قال الله تعالى . « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم » « فأبنا تولوا فثم وجه الله »

من هاتين الآيتين يتخذ الصوفية سندا يقيمون عليه مذهبهم فى تجلى الحق سبحانه فى مخلوقاته تجلى إحاطة وشمول .

يشهد بذلك آيات عظمتة ودلائل سلطانه المتبرجة فى السماء والأرض ، وما بينهما وما حولهما مما نعلم وما لا نعلم ، وكل ما فى الوجود يتمثل بعظمة الله ويسبح بحمده . وقد استنبطوا من ذلك كله نظرياتهم القديمة التى ترمى إلى « وحدة الوجود » وغيرها مما استفاضت به كتبهم الصحيحة .

قال الله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال » رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .
وقال تعالى : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » .

أثبتت الآياتان الكريمتان أن الله عز وجل عباداً ناجاهم الله في فكرهم وقلوبهم في ذات عقولهم ، فقطموا بالذكر والعبادة مراحل الحياة ، وأقروا أعينهم بالخلوة والمناجاة ، حتى أصبحوا أعلام هدى ، ومصاييح دجى ، قد حفت بهم الملائكة ، وتنزل عليهم السكينة :

فهل يلام السادة الصوفية إذا انتظموا في عقدهم ؟؟ وانخرطوا في سلكهم ، فكرسوا حياتهم للتقوى ، وتشبهوا بالملائكة الأعلى من ملائكة الله المقربين في دوام الذكر والتسبيح والعبادة ؟؟

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

هذه الآية الكريمة أصل من أصول الصوفية في طريقتهم في (الحب الإلهي) الذي أضفى على الوجود حلال الصفاء والمودة ، وجعلهم إخوة متحابين لا يمسهم نصب ولا نخاف في بينهم عداوة . . أحبوا الله فأحبهم ورضوا عنه فرضى عنهم ، وتراحوا فيما بينهم لالشأنية أو غرض ، بل كان أساسهم فيه طاعة الله ورسوله ، وذلك هو الحب في الله الذي هو أوثق عرى الإيمان .

قال الله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم) . (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) . (وما بكم من نعمة فمن الله) . (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

قررت الآيات الكريمة في صراحة ووضوح أن كل ما يحبه العبد ينبغي أن يخرج عنه ابتغاء مرضاة الله ، وتعرضا لبره وإحسانه ، لأن كل شيء لله ومن الله ، ولا يبلغ العبد درجة عالية من الإيمان إلا بالإيثار على النفس حتى في أحلك الظروف .

وأشد الأوقات . . وهذا كله مما ينطوى عليه التصوف ، ويهدف اليه الصوفية .
 قال الله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه
 ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير)
 فما اصطلاح عليه ساداتنا الصوفية أن السالكين تتفاوت درجاتهم ومقامهم على
 حسب أعمالهم واجتهادهم ، لذلك قسموهم إلى العموم والخصوص وخصوص الخصوص
 وهذا النظام البديع مقتبس من تلك الآية الكريمة التي قسمت أهل الجنة طوائف
 ثلاثا : (فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات)
 قال الله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » . « واعبدوا ربك حتى يأتيك اليقين »
 فهم الصوفية من هاتين الآيتين أن التقوى والعبادة سبيلان للعلم الباطن ، القائم
 على أساس إلهام القلب وإشراق الروح وصفاء السريرة .
 قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتوبوا إلى الله توبة نصوحا » . « يا أيها
 الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . « فاذا عزمت
 فتوكل على الله » . « لا أقسم بيوم القيامة » . « ولا أقسم بالنفس اللوامة » . « وأما من
 خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » . « اعلوها أنما الحياة
 الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد . كذلك غيث أعجب
 الكيفار نباته ثم يبيح فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة
 من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .
 من هذه الآيات الكريمة وغيرها استمد الصوفية رضی الله عنهم مقاماتهم العائدة
 التي تلونت بها أحوالهم وأعمالهم ، وذهبوا فيها كل مذهب في التوبة ، والصبر ،
 والتقوى ، والتوكل ، والاخلاص ، والمحاسبة ، والمجاهدة ، والزهد .
 وكان هدفهم الأعظم الذي يرمون اليه ، وغايتهم الكبرى التي يسعون لتحقيقها هو
 تدعيم حياتهم الروحية التي وصلت قلوبهم بأسباب السماء ، وأشرقت في نفوسهم ألوان
 من الأنس والصفاء ، والجلال والإشراق .

السنة الغراء

وجد التصوف في حياة النبي ﷺ مصدره الثاني الذي استمد منه الزهاد زهدهم واستقى منه الصوفية أذواقهم ووجدوا فيه ما يؤيدون به مذاهبهم :-

كانت حياة الرسول ﷺ صورة كاملة للصوفي الحق ومثلا أعلى استهدفه رجال التصوف في العصور المتتابعة فقد عاش ﷺ طيلة حياته في روحانية ونقاء ، وفي زهد وتقشف . وكان ﷺ شديد الخوف والخشية . حتى إنه كان يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

وكان يصلي كثيرا . ويقوم الليل إلا قليلا حتى تتورم قدماه . ويشفق عليه ربه الرحيم سبحانه وتعالى فيقول : طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى .

وقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه . فقالت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . ؟؟ فقال أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا . ؟؟

وكان ﷺ خير الزاهدين في الدنيا ، فهو الذي خير بين أن يكون نبيا ملكا وبين أن يكون نبيا عبدا فأثر أن يكون نبيا عبدا ، ليجوع يوما فيصبر ، ويشبع يوما فيشكر . ١٩ .

ودخل عليه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبكى لما رأى رسول الله ﷺ قد أثر الحصر في جنبه الشريف من طول ما نام عليه . وقد تذكر كسرى وقيصروما هما فيه من عز باذخ ونعيم عظيم .. فقال له رسول الله ﷺ هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا . ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا يوم القيامة . ..

وكان ينسأخ الشهر والشهران ولا يوقد في بيته نار . ﷺ فقد جاءت له الدنيا فأعرض زاهدا . يبغي من الآخرة المكان الأرفع

ما جر أثواب الحرير ولا مشى بالتاج من فوق الجبين مرصعا
 من ألبس الدنيا السعادة حلة فضفاضة لبس التقيص مرقعا
 وهو الذي لو شاء نالت كفه كل الذي فوق البسيطة أجمعا
 وفي هديه الكريم ما يحجب المسلم التقي في الزهد فنقد روى ابن ماجه والطبراني
 أن النبي ﷺ قال : ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك
 الناس وروى ابن ماجه وأبو نعيم والبيهقي أن النبي ﷺ قال : إذا رأيتم
 الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا . وقلة منطق . فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة . .
 وكان ﷺ دائم الذكر لربه يناجيه ويستهديه وجعلت قرعة عينه في الصلاة
 والمناجاة والخلة والذكر والفكر . يجد في كل ذلك برد الراحة والطمأنينة . وهو
 الذي قال في حديث رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه : ألا أنبئكم بخير
 أعمالكم ؟ وأزكاها عند مليككم ! وأرفعها في درجاتكم ! وخير لكم من إنفاق
 الذهب والورق ! وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا
 أعناقكم ؟ ! ! قالوا بلى : قال ذكر الله تعالى . فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه :
 ما شيء أنجي من عذاب الله من ذكر الله . .
 وروى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : إن لله ملائكة سيارة فضلاء يتبعون
 مجالس الذكر . فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا
 بأجنتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا . .
 وفي تحنث الرسول ﷺ في الغار وحده بعيدا عن الناس . محتليا بقلبه وروحه
 متأملا في كتاب الوجود متصفحا معانيه . نشدانا لوجه الخالق العظيم . واستغراقا في
 جلاله ومحبه . كل ذلك دعاءات قوية . عززت مركز الصوفية في خلواتهم التي
 انبثقت منها أنوار ساطعة أضاءت جوانبهم وملأت قلوبهم بالحكمة العالية
 وأحاطتهم بالتوفيق البالغ في تصرفاتهم .
 وفي أحاديث الرسول ﷺ نفحات صوفية شعت أنوارها على رجال أهل

المعرفة . من ذلك ما أخرجه البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . وبصره الذى يبصر به . ويده التى يبطش بها . ورجله التى يمشى بها . ولئن سألتنى لآعطينه . ولئن استعاذنى لآعيذه » . وفى هذا الحديث بيان لمبدأ طريق الصوفية ونهايته . حيث إنهم يبدؤن بالمجاهدة والعبادة التى تصل بهم إلى تطهير قلوبهم من كل ما يباعد عن الحق سبحانه وتحليتها بكل ما يقرب إليه ثم تنتهى بهم تلك المقامات والأحوال إلى درجة الفناء عن أنفسهم التى لها مكان القمة فى درجات الايمان .

وأخرج الترمذى رضى الله عنه . عن النبي ﷺ أنه قال : « الكيس من دان نفسه . وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها . وتمنى على الله الأمان » .

وهذا الحديث الشريف إشارة إلى تربية الوازع القوى والضمير الحى الذى ينهى باللائمة على النفس الأمارة بالسوء ويرقب تصرفاتها عن كسب فى جو من المحاسبة والحساسية . وتلك هن مقامات الصوفية ودرجات سلوكهم .

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه ، فى حديث سؤال جبريل عن الإحسان . قال رسول الله ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وذلك الذى أشار إليه الحديث من أصول الصوفية التى تهتف بكمال المعرفة وتنادى بدوام المراقبة للحق سبحانه فى الحركات والسكنات .

أخرج الشيخان عن أبي بن كعب رضى الله عنه عن موسى عليه السلام قال للخضر : « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » قال : « إنك لن تستطيع معى صبرا » . يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا ينبغى لك أن تعلمه . وأنت على علم عليك الله لا ينبغى لى أن أعلمه ،

وهو يقرر علم الحقيقة وهو العلم الباطن . أو العلم اللدني الخاص بأرباب المعرفة
والمقامات . .

هذا : وقد استفاضت كتب السنة الصحيحة بالأحاديث الشريفة التي تصور لنا
مناهج السادة الصوفية ومذاهبهم . ومهما يكن من شيء فإن الصوفية رضى الله عنهم
تتبعوا سيرة الرسول الأعظم ﷺ وافقهوا أثره في كل أحواله الشريفة بما كان له
أعمق الأثر في توجيههم تلك الوجوه الروحية الخالصة . .

حياة الصحابة رضى الله عنهم

الصحابة الكرام رضى الله عنهم : هم الرعيل الأول من رجال التصوف الذين كانوا خير قدوة ، وأعظم أسوة لمن أتى بعدهم من الصوفية .

أبو بكر رضى الله عنه : - وهو الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، الذى قد رجح إيمانه بإيمان الأمة ؛ ومع ذلك يقول (لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلى فى الجنة ، والأخرى فى النار) .

ولقد تمثل زهده البالغ فى خروجه عن جميع ماله فى الهجرة النبوية ، ولما سأله النبي ﷺ عما تركه لأهله ؟ أجاب بقوله : « تركت لهم الله ورسوله ! » ، وكان رضى الله عنه يقول (من ذاق من خالص المعرفة شيئاً شغله ذلك عما سوى الله ، واستوحش من جميع البشر)

ومن خوفه رضى الله عنه ما روى من أنه مرَّ على طائر واقع على شجرة فقال : (طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجرو تأكل من الثمر ، وليس عليك حساب ولا عقاب ، يا ليتنى كنت مثلك ! والله لوددت أنى شجرة إلى جنب طريق فمر على بعير فأخذنى فلاكنى ثم ازدردنى ، ثم أخرجنى بعيراً ولم أك بشراً !)

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : - لم يكن أقل شأنًا من صاحبه فى الحياة ، الروحانية الصافية ، وحسبه أن النبي ﷺ قال فى شأنه (كان فى الأمم محدثون ومكلمون ، فإن بك فى هذه الأمة فممر) والمحدث الملمم من درجات الصديقين . كان رضى الله عنه يلبس الثوب المرقع من اثنتى عشرة رقعة ، ويأكل الخبز دون إدام ، حتى تغير لون بطنه ، وتأخر يومًا عن المسجد فقال له أصحابه : ما حبسك عنا يا أمير المؤمنين ؟ فقال ثوبى كان يغسل وليس لى سواه ! !

ولقد كان شديد الخوف من ربه ، ويتجلى ذلك فيما روى أنه لما حضرته الوفاة غشى

عليه ، فأخذ ابنه عيد الله برأسه فوضعه في حجره ، فقال له عمر . ضع رأسى بالأرض
 لعل الله يرحنى ، فسمح خديه بالتراب وقال . ويل لعمر إن لم يفقر له !!
 فقال له ابنه : وهل أخذى والأرض إلا سواء يا أبتاه ؟ فقال ضع رأسى
 بالأرض كما أمرك ، فاذا قضيت فأسر عوابى إلى حفرتى وإنما هو خير تقدموننى إليه أو شر
 تضرعون به عن رقابكم ثم بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال خبر السماء !! لا أدرى إلى جنة
 ينطلق بى أو إلى نار !!

عثمان بن عفان : - كان رضى الله عنه دائم الفكرة ، كثير الصلاة بالليل ، دؤوبا
 على قراءة القرآن ، وكان حافظا ، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف ، فقيل له في ذلك
 فقال إنه مبارك جاء به مبارك ، وكان يقول (إنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر
 فيه إلى عهد الله) (يعنى المصحف)

ولما قتل رضى الله عنه كان المصحف فى حجره ، وسال الدم على المصحف عند
 قوله تعالى « فسيكفئكم الله وهو السميع العليم »
 ولقد كان رضى الله عنه حيا حتى قيل « رقى فنحن نجزع أن يذوب » ولم يمنعه
 غناه أن يكون من الزاهدين ، فقد أثر عنه أنه قال « لو لا أنى خشيت أن يكون فى
 الاسلام ثلثة أسدها بهذا المال ما جمعته »

على بن أبى طالب . - كان رضى الله عنه لسان الصوفية الفصيح ، يعبر عن المعرفة
 والمقامات بأسمى ما يصل إليه بامع أو أديب .

وروى عنه أنه قال « الخير كله مجموع فى أربعة ، الصمت ، والنطق ، والنظر ،
 والحركة ، فكل نطق لا يكون فى ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون فى فكر
 فهو سهو ، وكل نظر لا يكون فى عبادة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون فى تعبد الله ،
 فهى فتره ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبادة ، وحركته
 تعبدا ، ويسلم الناس من لسانه ويده .

كان رضى الله عنه طويل المعركة ، غزير العبارة ، يعجبه من الطعام ما خشن

ومن اللباس ما قصر ، يحب المساكين ، وكانت إذا غارت نجوم الليل يتملبل تملبل السقيم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول « يادنيا غرى غرى إلى تقربت هيات هيات قد بايتك ثلاثا فأمرك حقير ، وأجلك قصير آه من قلة الزاد وبعد الطريق ،

ولبت رضى الله عنه شهرا كاملا ولم يكن فى بيته سوى سيفه ودروعه وقطيفة إن افترشها مع زوجه فاطمة رضى الله عنها لا تغطيها . وإن تغطيا ، بها لم يجدا فراشا لها أهل الصفة : - وهم فريق من فقراء المهاجرين والأنصار تجردوا من مظاهر

الحياة ، ورغبوا عن الدنيا وأقبلوا على الله يقرؤن القرآن فتخشع قلوبهم ويذكرون الله فتفيض عيونهم بالدمع خشية ورهبة ، ويعبدون الله بشوق ولهفة ولذة ، وكانوا كما وصفهم أبو نعيم بقوله : -

(هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجملهم قدوة للمتجربين من الفقراء ، لا يأوون إلى أهل أو مال ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال ، لم يحزنوا على ما فاتهم ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من اليقين)

وبعد : - فنخلص من ذلك كله إلى أن التصوف قد وجد أصله الأولى فى كتاب الله الكريم ، ثم فى حياة الرسول ﷺ التعبدية ، وفى تنسك الصحابة وزهدهم .

كما ينتهى بنا القول إلى أن حياة الصوفية ومنازعتهم فى العبادة ومدارجهم فى السلوك ، كل أولئك ليس فى الحقيقة إلا ترديدا ، لهذا اللحن الروحى الرائع الذى تغناه الرسول ﷺ فى حياته ورتله معه أصحابه رضى الله عنهم هذا الترتيل الجميل الذى كان له صداه القوى فى نفوس من استمع اليه واستجاب له من رجال التصوف الذين سجل لهم التاريخ أنصع الصفحات .

بفلسال خرافه نه

الرقصون بين الماضي والحاضر

من مفاخر السلف

لقد مر بالتصوف عصور ذهبية سجلت نموه وازدهاره . وأكبر التاريخ فيها مواقف رائعة لرجالها السابقين في حياتهم التعبدية الزاهرة . . .
ولقد أفصح عن ذلك حكمهم الخوالد ، التي أرسلوها نجوما باقية في سماء التصوف وشعاعا نورانيا ينسكب بالهدى واليقين .

وسنقف على شيء من تاريخهم المجيد . ومقاماتهم العالية . مما نحس معه ببريق تقواهم ينفذ إلى أعماقنا . ونشعر بخشوعهم يسرى في حواسنا . وما ذلك إلا لأنهم أخلصوا لله قلوبهم وأصفوه حبهم ومناجاتهم . فخلد لهم الله في الأسماع ذكرا طيبا . وفي القلوب تقديرا وإكبارا . . .

أويس القرني : - أفضل التابعين . شرفه رسول الله ﷺ بالمنزلة العالية . حيث أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يستمنحه الدعاء بالمغفرة . لأنه طيب القلب . حبيب الرب ، مرجو الإجابة . ومع ذلك فهو مجهول في الأرض . معروف في السماء .

ولما مثل عمر بين يديه وسأله أن يدعو له . قال له أويس ناصحا له : يا عمر ، ابتغ رحمة الله عند طاعته . واحذر نقمته عند معصيته . ولا تقطع رجاءك عنه خلال ذلك .

ومن نفحاته الصوفية رضي الله عنه : ما روى أنه كان جالسا وحده ثم أتاه هرم بن حيان . فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال جئت لأنس بك . فقال أويس . ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه في أنس بغيره .

الحسن البصري : - كان رضي الله عنه يقول : إن لله عز وجل عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين . وكمن رأى أهل النار في النار مخلدين . قلوبهم محزونة وشروهم مأمونة . حوائجهم خفيفة . وأنفسهم عفيفة . صبروا أياما قصارا تعقبا

راحة طويلة . أما الليل فصافة أقدامهم . تسيل دموعهم على خدودهم . يجأرون إلى ربهم . ربنا . ربنا . وأما النهار فخللاء علماء . بررة أنقياء . كأنهم القداح . ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من حبهم لربهم وذكر الآخرة أمر عظيم ،

عطاء بن أبي رباح : قال رضى الله عنه : (خرجنا مع عتبة الغلام ، وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رؤوسهم ، واصدقت جلودهم على عظامهم ، وبقيت العروق كأنها الأوتار ، فبينما هم يمشون إذ مر أحدهم بمسكان ، نخر مغشيا عليه ، فجلس أصحابه حوله ليكون في يوم شديد البرد وجيئة يرشح عرقا ، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره ؟ فقال إني ذكرت أنى كنت عصيت الله في ذلك المسكان !!

رابعة العدوية : - سألت النورى رابعة العدوية رضى الله عنها قائلا : لكل عبد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدت الله خوفا من الله فأكون كالامة السوء ، إن خافت عملت ، ولا حبا للجنة ، فأكون كالامة السوء إن أعطيت عملت ، ولكنى عبدته حبا له وشوقا إليه !!

ومن كلامها رضى الله عنها في حقيقة حب العبد لربه : -

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بذبذب
لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

ابراهيم بن ادحم : - سئل رضى الله عنه : ما بالنا ندعو الله فلا نجاب فأجاب بقوله

(لأنه دعاكم فلم تجيبوه) ومن كلامه رضى الله عنه (لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ، ولذة العيش وقلة التعب ، مع جمال الخلوة والجلوة لجالدونا عليه بالسيوف .

مالك بن دينار . - قال رضى الله عنه (بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة . وهى تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت

تبعانها ؟ يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكي ، فزال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول ثكلت ما لكأمة (أبو يزيد البسطامي . - كان يقول رضى الله عنه (لله عباد لو حججهم في الجنة عن

رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار من النار !)

شيبان الراعى . - حكى ابن عطاء الله السكندري في كتابه التنوير أن الامام الشافعى رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رضى الله عنه كانا جالسين إذ أقبل شيبان الراعى رحمه الله فقال أحمد للشافعى . أريد أن أسأل هذا ؟ فقال الشافعى . لا تفعل فقال . لا بد من ذلك ، فقال يا شيبان . ما تقول فيمن نسي أربع سجعات من أربع ركعات ؟ فقال يا أحمد . هذا قلب غافل عن ذكر الله عز وجل يجب أن يؤدب حتى لا يعود إلى مثل ذلك ، فخر أحمد مغشيا عليه ثم أفاق ثم سأل فقال : ما تقول فيمن له أربعون شاة ما زكاتها ؟ فقال على مذهبه أو مذهبكم ؟ فقال أحمد . هل في هذا مذهبان ؟ قال نعم ، أما على مذهبكم ففي الأربعين شاة شاة ، وأما على مذهبه فالعبد لا يملك مع سيده شيئا . . . !

السرى السقطى . - كان رضى الله عنه من شدة خوفه من عذاب الله يقول (إنى لا أنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى)

عبد العزيز الدباغ : - كان رضى الله عنه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فقد أفاء الله عليه من المواهب الفيضية ما يثير الدهشة والعجب ! ! ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

كان رضى الله عنه يميز بين الحديث الصحيح من غيره ، فسأله تلميذه أحمد بن المبارك رضى الله عنه عن السبب ؟ فقال : إن الشخص في الشتاء إذا تسكلم خرج من فمه الفوار ، وإذا تكلم في الصيف لا يخرج من فمه فوار ، وكذلك من تسكلم بكلام النبي ﷺ خرج النور مع كلامه ، ومن تسكلم بغير كلامه خرج الكلام بغير نور ،

وقال أيضا (إن السراج إذا نفذ قوى نوره ، وإذا ترك بقى على حاله ، وكذا حال
العارفين إذا سمعوا كلامه عليه السلام تقوى أنوارهم ، وتزداد معارفهم ، وإذا سمعوا
كلام غيره بقوا على حالتهم)

ومن روائع حكمه رضى الله عنه ، ولولم يخلق الله الجنة ولا ناراً للبين من يعبده من
لا يعبده ، ولا كانت عبادة الذى يعبده خالصة لوجهه الكريم ، وحينئذ تحصل المعرفة
به تعالى على وجهها المكامل لمن عبده ، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار ،
تفرقت أغراضهم نحوها فاضلوا عن السبيل !

هذا .. ولو قرأنا تراجم السادة الصوفية ، واستقينا أخبارهم من المصادر الصحيحة
وتبعنا سيرتهم السكرية فى مناقبهم ومؤلفاتهم ، لقدرة نام حق قدرهم ، ولا كبرنا
فيهم صفات النبيل والفخار ، وسمات الإخلاص والإيمان ، رضى الله عنهم وأكرمنا
بكرامتهم وحشرنا فى زميرتهم .



تدهور بعد ازدهار !!

بعد هذه الحياة الزاهرة التي نما فيها التصوف وازدهر ، وشب وترعرع ، مرت حقبة من الزمن أصاب التصوف فيها كثير من الوهن والضعف ، وامتزج بعناصر الغرور وحب الظهور ، والتطلع إلى الحياة المادية بالسعي وراء الزلف عند أصحاب الجاه والسلطان ، وخالف كثير من سالكى الطرق الصوفية ما سار عليه السلف الصالح من سنن الزهد والعبادة وأصول المجاهدة والرياضة ، وقصروا أمرهم على إناوات تجمع ، وموالد تقام ، ومواكب تسير ، وأعلام تنصب ، وألقاب تنال ، ومظاهر وشكليات لا تتصل بصميم الطريق ، ولا ترتبط بالجواهر ، ولا تحل طابع التصوف الإسلامى الصحيح .

وكانت تلك الأمور من أقوى الأسباب فى مهاجمة التصوف ورجاله ، إلى حد أن صور بعضهم التصوف بين ماضيه وحاضره حيث كان فى العصر الأول نوراً وإيماناً يتذوقه المحب ، وينعم به العابد ، ثم انتهى أمره إلى التدهور والتأخر فقال :- (كان التصوف حالاً فصار كاراً ، وكان احتساباً فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاً ، وكان اتباعاً للسلف فصار اتباعاً للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تقشفاً فصار تكلفاً ، وكان تخلفاً فصار تماقلاً ، وكان سقماً فصار لقماً ، وكان قناعة فصار جفاعة ، وكان تجرّيداً فصار ثريداً)

ولعمري إن ذلك الوصف - مع ما فيه من المبالغة والاسراف - يكشف لنا عن الضعف الذى شوه وجه التصوف الأمر الذى يثير الاشفاق والخوف من المصير الذى أوشك أن يوقعه أهله فيه .

وليس معنى هذا أن الحياة قد أفقرت من رجال التصوف المخلصين ، فإن هناك كثيراً من أصحاب النفوس الصافية والقلوب الطاهرة المؤمنة الذين يمشون على سيرة سلفهم من العباد والزهاد فى ظلال المجاهدة والإخلاص ، والمعرفة واليقين .

بيد أنهم يؤثرون التستر والاختفاء ، ويربأون بأنفسهم عن الظهور والادعاء .
هذا ولو أننا شجعنا مبادئ التصوف ودعونا الناس إلى تطبيقها ، ووجهنا
جهودنا إلى تقويم المعوج فيها ، وإصلاح الفاسد منها ، لاضمننا لأممتنا مجتمعا سليما
طاهرا يعمل في إخلاص وصفاء ، ويعيش في طهارة ونقاء ، ولا شرقت الأرض بنور ربها
من جديد ، وغمرتها موجة الإصلاح والتجديد ، وإننا اليوم في عصر تكاثفت فيه
الظلمات ، وأدلمت فيه الخطوب ، وتصارعت فيه الأفكار والمبادئ ، وطمى فيه
سلطان المادة على سلطان الروح ، فهل لرجال التصوف أن ينشروا مبادئهم السليمة
التي تعيد الغضارة إلى القلوب ؟ والنضارة إلى النفوس ؟ والسلام إلى الناس ؟ واليقين
إلى الحيارى المتعبين ؟ ؟

هل لهم أن يفتحوا مدارسهم الروحية ذات المناهج العالية التي تخرج لنا أمثال
ابن عطاء ، وأبي يزيد ، وابن العربي ، والغزالي ؟ ؟ فستعيد بذلك تلك الأنعام
والألحان ، وهذه الوثبات والنشوات والمناجاة والخلوات والالهامات والمكاشفات
التي تسموا فوق التصور والخيال !!

هل لهم أن يعمرُوا قلوبهم بمعرفة الله ؟ ويعمرُوا نفوسهم بحبته الصادقة ؟ التي
تفيض عليهم الاشراف والهبات ؟ ؟

هل لهم أن يصفوا أقدامهم في وحشة الليل ويتسموا سنن ابن آدم والفضيل ؟
ويقتفوا أثر السرى والجنيد ، ويتعرفوا إلى أحوال السكرخى وأبي يزيد ؟ ؟

هل لهم أن تحلق أرواحهم في نور الصفاء ؟ وتذوق من رحيق الرضا ؟ ويتروكوا
دنيا الملذات والشهوات .

وأخيرا . . هل لهم أن يهتفوا بأن كل شيء لله ومن الله ؟ وأن الحياة طابعها
الرحمة ، ودستورها المحبة ؟ وهدفها العبادة ؟ ؟

هذه آمالي وأمانى أرفعها إلى الله العلي القدير أن يفتح قلوبهم لها ، ويشرح صدورهم
بما انطوت عليها ، وما ذلك على الله بعزيز إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين
وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم . . .

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
المحاسبة	٢١	مقدمة الكتاب	٥
التوكل	٢٢		
الذكر	٢٣	التصريف بالتصوف	٩
الحب الإلهي	٢٥	التصوف	١٠
بين الحقيقة والشرعية	٢٨	اشتقاق كلمة التصوف	١٠
الكشف والإلهام	٣١	نشأة علم التصوف	١٠
الوجد الصوفي	٣٣	من المؤسسين الأول ؟	١١
شطحات الصوفية	٣٧		
تفسير الصوفية للقرآن	٤٢	فلسفة التصوف	١٣
مصادر التصوف	٤٧	طريق الوصول إلى الله تعالى	١٤
القرآن الكريم	٤٨	التوبة	١٤
السنة الغرام	٥١	أخذ العهد	١٥
حياة الصحابة رضي الله عنهم	٥٥	نشأة الطرق الصوفية	١٦
التصوف بين الماضي والحاضر	٥٩	الورع	١٦
والحاضر		الخوف	١٧
من مفاخر السلف	٦٠	الخلوة	١٧
تدهور بعد ازدهار	٦٤	الزهد	١٨
		الصبر	١٩
		الرضا	٢٠

تمت

للمؤلف

مَوْعِظَاتُ الْمُؤْمِنِينَ

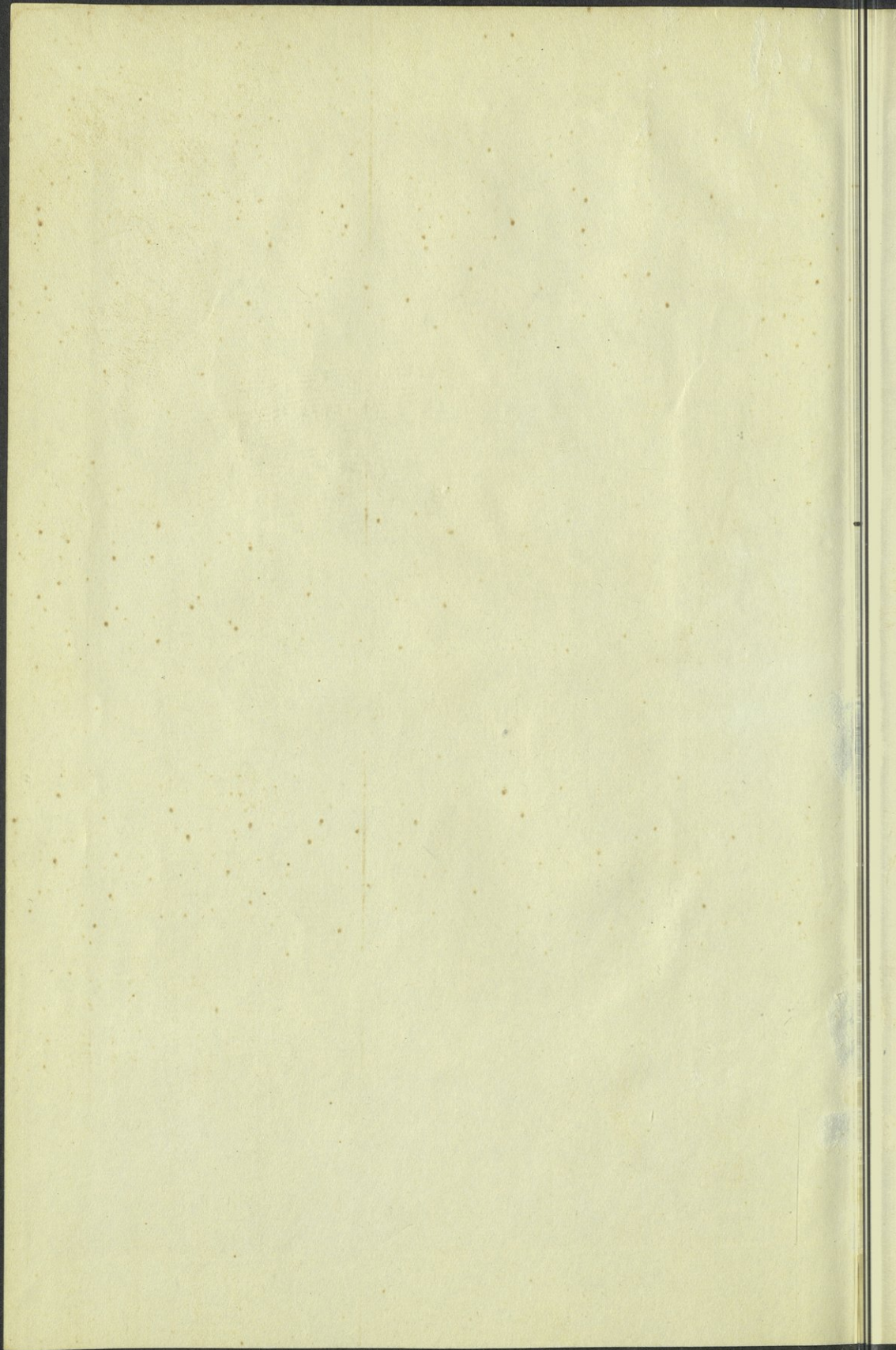
كتاب عرض للحياة الدينية والخلقية والاجتماعية في نحو خمسين خطبة منبرية انطوت على موعظ تحيي القلب الميت وتوقظ الإحساس الخامد وتخصب الشعور الجديد وتصل إلى الأعماق في الهداية والإصلاح. وقد قرظله هيئة من أجلاء العلماء والصحف والمجلات الدينية، وهو يعتبر زاداً للواعظ وعدة للخطيب ومادة غزيرة لكل من يتصدى للدعوة والإرشاد. ويقع الكتاب في نحو من مائتي صفحة من الحجم الكبير وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد :

ذكريات الرسول ﷺ

في شهر ربيع

وهو عرض سريع لحياة الرسول ﷺ في مولده وبعثته وهجرته ووفاته وقد تناول صوراً كريمة ومثلاً علياً للنشاط الدعوة الإسلامية وكيف استطاعت أن تشق طريقها إلى النفوس الجامدة حتى خفق لواؤها في كل مكان.

والكتاب لازم لمكتبة كل مؤمن يحب الله ورسوله ويريد أن يقف على كثير من أخلاق الرسول ﷺ وسيرته العطرة ويقع في ٦٤ صفحة من الحجم المتوسط وثمنه خمسة قروش خلاف أجرة البريد.



297.48:M67LA:c.1

الميرغنى، حامد محمود على اسماعيل
لمحات عن التصوف

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010953

American University of Beirut



297.48
M67LA

General Library

297.48
M672A
C.I